المحاضرة (التمهيدية)

عناصر المحاضرة :

- **المعلومات العامة عن المقرر**
- **مقدمة**
- **المصادر والمراجع**
- **الاختبارات والواجبات والمنتديات.**

وصف المقرر :

الكلية : الآداب

القسم: الدراسات الاجتماعية / التاريخ

اسم المقرر : تاريخ العرب الحديث

المستوى: السابع

رمز المقرر : ترخ ٧٤٠٤٤٠٢

عدد الساعات : ٢ لغة التدريس : العربية

طبيعة المقرر: نظري

محتوى المقرر:

يتضمن المقرر نظام الحكم العثماني في العالم العربي من العراق إلى الجزائر ومن بلاد الشام إلى اليمن، وحركات الاصلاح السلفي في العالم العربي، الحملة الفرنسية على مصر والشام الأسباب والأحداث والنتائج، ثم مشروع محمد على التوسعي وموقف الغرب منه، وأخيراً المخطط الغربي لاحتلال العالم العربي في القرن التاسع عشر، ويشمل احتلال فرنسا للجزائر، ثم تونس، واحتلال بريطانيا لعدن، ثم مصر والسودان.

أهداف المقرر :

أن يتعرف الطالب على:

- موقف العالم العربي من الحكم العثماني.

- دور دول المغرب الأقصى في التصدي للهجمات الاستعمارية.

- الحملة الفرنسية على مصر والشام وأثرها على المنطقة.

- مشروع محمد علي التوسعي وموقف الغرب الأوربي منه.

- المرحلة الأولى من المخطط الغربي لاحتلال العالم العربي.

المراجع :

المرجع الرئيس:

عبد الرحيم عبد الرحمن، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار

الكتاب الجامعي،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٣م .

ملاحظة هامة:المطلوب من أول الكتاب حتى صفحة ٢٦٦ فقط.

المراجع المساعدة :

١- إسماعيل ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، الرياض، ١٤٢٥هـ.

٢- عمر عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، الإسكندرية، ١٩٨٠.

:الخطة الدراسية(عناصر المقرر)

تشمل المواضيع التالية:

- المحاضرة التمهيدية

- الاستيلاء العثماني على البلاد العربية في القرن السادس عشر(الأوضاع السياسية في العالم العربي قبيل الحكم العثماني

- الحكم العثماني للبلاد العربية

- حركات الاصلاح السلفي في البلاد العربية إبان الحكم العثماني :(الدعوة السلفية.. الوهابية)

- الدعوة السلفية والتغيير في الجزيرة العربية/ وفي الحركات الاصلاحية في العالم العربي

- التيارات الفكرية ويقظة الوعي القومي: (في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام)

- في مصر وبلاد المغرب العربي

-ازدياد نفوذ الأسر الحاكمة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي

- الزحف الاستعماري على البلاد العربية : التنافس الانجليزي الفرنسي في المشرق العربي(في الخليج العربي والبحر الأحمر)

- الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام(١٧٩٨- ١٨٠١م)

- الزحف الاستعماري على بلاد المغرب العربي

- العرب خلال القرن التاسع عشر: تيار الوحدة الوطنية في النصف الأول من القرن التاسع عشر

- مصر في عهد خلفاء محمد علي(١٨٤٨- ١٨٨٢م)

- السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الاسلامية – مراجعة عامة .

توزيع الدرجات

المحاضرة الأولى

الاستيلاء العثماني على البلاد العربية في القرن السادس عشر

أولاً: العثمانيون والمشرق العربي

وجدت ثلاث قوى كبرى في منطقة الشرق الاسلامي مطلع القرن السادس عشر، وهي :

١- الدولة العثمانية :

ونجح ابنه "أورخان" ، في الاستيلاء على بروسا ١٣٢٦م، وجعلها حاضرة الدولة، وبذلك تحولت الدولة من إمارة حدود يسكنها الرعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود، لها جيش نظامي يدافع عنها ويوسع رقعتها، وإدارة تشرف على أمور الحكم فيها .

واستمر خلفاء عثمان ، في تقوية صرح دولتهم ، فقد نجح "أورخان بن عثمان" ٧٢٦-٧٦١هـ/١٣٢٦-١٣٥٩م، في تقوية الجهاز الإداري للدولة ، وجعلها تقوم على أسس إدارية وحربية قوية ، فقد طبق مبادئ معينة أهمها التسامح الديني، وقسم الأراضي التي استولى عليها ، على المحاربين المخلصين ، وأعلن أن الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها خارج المدن، ستوزع على الجنود الذين اشتركوا في القتال، شريطة أن يقوم شاغلوها بالوفاء بحاجات الخدمة العسكرية.

وكان المسيحيون يعفون من الخدمة العسكرية في مقابل دفع الجزية ، وكان الذمي يصبح عثمانياً بمجرد اعتناقه الإسلام، فبذلك توطدت المبادئ الأولى لدعائم الدولة في عهد"أورخان" حيث صقل بمساعدة أخيه علاء الدين ، النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وعزز الأمن الداخلي.

وفي عهد السلطان مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م)، حيث سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى كلية، كما سيطروا على البلقان ، وشبه جزيرة اليونان، وتغلبوا على المجريين والألبانيين ، وأجبروا الامبراطور البيزنطي– الذي لم يبق له من ممتلكاته سوى القسطنطينية، وضواحيها – على دفع الجزية . ثم كان عهد السلطان محمد الثاني (١٦محرم ٨٥٥-٨٦٦هـ/١٨فبراير ١٤٥١-١٤٨١م)، الذي لقب بالفاتح، حيث تم في عهده الاستيلاء على القسطنطينية، العاصمة البيزنطية في عام ١٤٥٣م .وبذلك امتدت رقعة الدولة العثمانية ، لتشمل معظم أملاك الدولة البيزنطية ، مثل : بلاد الصرب ، والمورة ، وجزائر بحر الروم ، وبوخارست ، وبلاد البوسنة ، وفتح جزائر اليونان ، ومدينة أوترانت ، وحاصر جزيرة رودس التي تم الاستيلاء عليها في عهد سليمان القانوني ١٥٢٢م ، واهتم بترتيب الإدارة العثمانية فأوجد نظاماً جديداً، وأصدر أول قانون نامة للدولة العثمانية . وسمى الحكومة العثمانية بالباب العالي، وأصبحت الدولة العثمانية القوة الإسلامية الأولى في مواجهة أوروبا ، ورغم الحروب الأهلية التي تنازعت خلفاء السلطان محمد الفاتح ، فإنهم استمروا في توسيع رقعة الدولة على الأرض الأوروبية، وأصبحت الدولة العثمانية ، قوة حربية يخشى بأسها، وحاز الجيش الانكشاري المنظم - وتعني الجيش الجديد – شهرة حربية كبيرة، حتى وصلت الدولة أوج اتساعها غرباً، في عهد السلطان سليمان القانوني، ولكن منذ عهد سليم الأول، حدث انقلاب

في استراتيجية الدولة الحربية، واتجاهات توسعها، حيث توقف زحفها، نحو الغرب أو كاد، وبدأت تتجه إتجاهاً شرقياً إسلامياً.

٢- الدولة المملوكية :

في عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، زالت دولة المماليك البحرية، وآل عرش السلطنة المملوكية إلى فرع آخر من المماليك، هم المماليك الجراكسة، أو البرجية وهم "الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وعنى السلطان منصور قلاوون "بتربيتهم في أبراج القلعة ، مما جعل اسم "البرجية" يلتصق بهم في التاريخ"، وقد بلغ عددهم في عهد السلطان منصور قلاون "أكثر من ثلاثة آلاف مملوك" ، وظل هؤلاء المماليك البرجية يحكمون مصر، وبلاد الشام، والحجاز، وأجزاء من اليمن، إلى حين انهيار دولتهم نهائياً، على يد السلطان سليم الأول العثماني (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، أي أن الدولة المملوكية بفرعيها البحري والبرجي، ظلت تحكم أجزاء كبيرة من الوطن العربي ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان.

وقد حقق السلاطين المماليك، كثيراً من الانتصارات للإسلام والمسلمين، فانتصروا على الصليبيين، وخلصوا بلاد الشام والشرق، من ذلك الخطر الذي جثم على أرض بلاد الشام فترة من الزمان، كما أنقذوا الشرق بانتصاراتهم، على المغول والتتار في عين جالوت ٢٦رمضان ٦٥٨هـ٣سبتمبر ١٢٦٠م. ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي بدأت تظهر سمات الشيخوخة والتدهور على الدولة المملوكية، من جراء المنازعات المستمرة، بين طوائف المماليك، ودخولهم، في سلسلة لا نهاية لها، من المؤامرات، هذا فضلاً عن عدم استقرار الحياة ألاقتصادية .

ولما نجح البرتغاليون، على يد فاسكو دى جاما عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح،والوصول إلى الهند، ومنطقة الشرق، عن طريق الدوران، حول أفريقية ، فكان لذلك تأثيره الكبير على إضعاف اقتصاديات السلطنة المملوكية، وقد حاول السلطان الغوري، التعاون مع الجهات التي تضررت، من وراء هذا الكشف، مثل البنادقة، والحكام المسلمين بالهند ، في العمل على طرد البرتغاليين، من منطقة الشرق ، ومن أجل هذا الهدف ، أعد حملة كبيرة باءت بالفشل، وحلت بها الهزيمة في موقعه ديو البحرية عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م، وقد أثبتت المواجهة المملوكية – البرتغالية، مدى الضعف الذي وصلت إليه هذه الدولة، وأنها لم تعد القوة الإسلامية القادرة، على مواجهة الأخطار الخارجية، ثم حدثت المواجهة بين الدولة، والقوة الإسلامية الأخرى الفتية، وهي الدولة العثمانية التي أنهت كيان هذه الدولة لتحل محلها، في حماية السواحل الإسلامية.

٣- الدولة الصفوية :

تنسب هذه الدولة ، إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي ، (٦٥٠-٧٢٥هـ /١٢٥٢-١٣٣٤ م)، وهو الجد الخامس، للشاه إسماعيل الصفوى التركماني الأصل، المؤسس الحقيقي للدولة. ومن المعروف، أن التشيع انتشر في إيران منذ فترة مبكرة، كما انتشر التصوف، كرد فعل ، لما شهدته البلاد، من آثار للنفوس، أثناء حكم المغول، والتيموريين، وحينما ضاق الناس ذرعاً،بالظلم والإجحاف الذي حل بهم،فالتفوا حول شيوخ الصفويين.

وفي عام ٩٠٧هـ /١٥٠٢ م، أعلن الشاه اسماعيل الصفوى، قيام الدولة الصفوية، مستغلاً في ذلك مكانته الروحية والمعنوية من ناحية، والمعاونة التي قدمتها له قبائل القزلباش من ناحية أخرى، وما كاد الشاه إسماعيل يتوج ملكاً على إيران، حتى أصدر السكة بإسمه ،وعمل على تحويل إيران كلية إلى المذهب الشيعي بالدم والنار، وحظر اعتناق المذهب السني، وأعلن أن المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للبلاد .

وعمل على توكيد وتدعيم الوحدة السياسية لإيران، ولكن سياسته العنيفة في نشر المذهب الشيعي في مناطق العراق، وشمال شرق الأناضول ، وإرساله الدعاة الشيعة إلى داخل الأناضول، أدت هذه السياسة إلى الصدام بينه وبين

العثمانين ، قبل أن يستكمل تنظيم قواته العسكرية من ناحية، وقبل أن ترسخ قواعد إداراته من ناحية ثانية، مما أدى إلى هزيمته في الصدام الأول في جالديران أغسطس ١٥١٤م ، كما سنرى .

الرأي حول اتجاه الدولة العثمانية نحو الشرق :

انتقل مركز الثقل في توسع الدولة العثمانية، منذ بداية القرن السادس عشر من الغرب إلى الشرق في عهد السلطان سليم الأول، وأصبح موقفها في الجبهة الغربية، دفاعياً أكثر منه هجومياً، وأمن جانب الدولة في أوروبا . ورأى السلطان سليم الأول نفسه، مدفوعاً نحو الشرق، بفعل عدة عوامل سياسية وجغرافية ولأنه رأى أن منطقة الشرق تحكم خطوط العالم التجارية آنذاك، من خلال البحر المتوسط وموانئه، والمسالك التجارية البرية التي تؤدي منه إلى الشرق الأقصى .

ووجدت عدة آراء حول أسباب توجه العثمانيون للمشرق العربي يمكن اجمالها بما يلي:

١- أن الدولة العثمانية ومركزها القسطنطينية من المعقول أن يقف مداها عند المجر، وفق المنطق التاريخي.

٢- أن دولة الهيئة الحاكمة فيها هيئة إسلامية، ومعظم رعاياها من المسيحيين ترغب في زيادة عدد رعاياها من المسلمين.

٣- أن ما جرى في الشرق العربي وحوله خصوصاً الزحف الأوروبي البرتغالي، ومحاولة الدولة الصفوية نشر المذهب الشيعي في العراق والأناضول، ساهمت في الاتجاه العثماني نحو الشرق.

فتح بلاد الشام ومصر :

كانت العلاقات العثمانية– المملوكية، منذ احتلال العثمانيين للقسطنطينية ٢٩ مايو ١٤٥٣ م، تتخذ مظهراً متضارباً في كثير من الأحيان، فتارة يسودها التعاون والود والدعم، وتعلن القاهرة ابتهاجها وسرورها، بانتصارات العثمانيين، باعتبارها انتصاراً للإسلام والمسلمين، وتارة أخرى يسودها النزاع والعداء حول الحدود في أعالي بلاد الشام من ناحية، والسيطرة في البحر المتوسط من ناحية أخرى وحدث النزاع بينهما حول النفوذ في إمارة البستان، أو إمارة ذي القار، أو القدرية، كما كانت تدعى نسبة إلى الأسرة التركمانية التي حكمتها في الفترة ١٣٥٣-١٥٢٢م، وهي إحدى الإمارات التركمانية التي كانت توجد في منطقة الفرات الأعلى، وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الإمارة العازلة بين منطقتيهما، وأيد كل منهما أميراً من أمرائها، ومارس النفوذ من خلاله، مما أزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين، وبخاصة حينما أزال السلطان سليم، أثناء عودته إلى القسطنطينية بعد انتصاره على السلطان الشاه اسماعيل الصفوى، إمارة ذي القدر، انتقاماً من الأمير علاء الدين، الموالى للسلطنة المملوكية، الذي رفض تقديم المؤن اللازمة للجيش العثماني، أثناء تقدمه نحو بلاد فارس، مما عاق هذا التقدم بعض الوقت.واعتبر السلطان الغوري عمل سليم هذا عملاً عدائياً صريحاً، موجهاً نحو الدولة المملوكية، وجعل السلطان الغوري يشعر بتحرج الموقف، وبدأ كل من الجانبين العثماني والمملوكي، يوجه الاتهامات إلى الجانب الآخر ، ومما زاد في تحرج الموقف، رفض السلطات المملوكية تسليم ابن أخ السلطان سليم الأول الذي لجأ إليها إلى السلطات العثماني .

وأصبحت الظروف تحتم وقوع الصدام المباشر بين الطرفين فخرج الغوري وتقدم بجيوشه إلى بلاد الشام ووصل حلب في أغسطس ١٥١٦م، والتقى الجيشان في سهل مرج دابق شمال حلب، في ٢٤ أغسطس ١٥١٦م، بعد أن فشلت محاولات الصلح بين الطرفين وأهان كل منهما رسل الطرف الآخر.وهزم المماليك في هذه المعركة، وقتل لسلطان.

الغوري أثناء المعركة، ويعزى انتصار العثمانيين إلى استخدامهم السلاح الناري اليدوي، الذي لم يستخدمه المماليك، وإلى سلاح المدفعية الذي قدر عدد وحداته المدفعية بثلاثمائة مدفع . بينما لم يكن لدى المماليك أي وحدة من هذا

النوع من السلاح وانضباط الجيش العثماني،وإلى خيانة خاير بك نائب الشام الذي كان يتبادل المراسلات سراً مع السلطان سليم، والذي أشاع هو وجان بردى الغزالي، الفوضى في صفوف الجيش المملوكي ولم يرغب السلطان سليم نظراً للظروف المحيطة به بالتقدم نحو مصر مركز الدولة المملوكية؛ لهذا عرض السلطان سليم وهو في دمشق على طومان بأي الذي لقب بالملك الأشرف البقاء في حكم مصر شريطة أن يذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة وعلى السكة ، ولكن طومان باي رفض العرض فقرر السلطان سليم التوجه نحو مصر وعبور صحراء سيناء وصحراء الشرقية،والتقى مع الجيش المملوكي في معركة الريدانية في يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢هـ/ ٢٣يناير١٥١٧م، مصطحباً الخليفة العباسي،لإسباغ الشرعية أمام الشعب المصري على هذا الضم العثماني لمصر وهزم المماليك في معركة الريدانية بعد قتال شديد، وتعد معركة الريدانية من أهم المعارك الحاسمة في تاريخ مصر والشرق حيث قررت مصير الدولة المملوكية والشعوب العربية التي كانت تخضع لنفوذها،ولجأ السلطان طومان باي إلى حسن بن مرعي شيخ العربان البحيرة، فسلمه للعثمانيين واستقبله السلطان سليم استقبالاً طيباً ثم أمر بشنقه على باب زويله بالقاهرة وبذلك سيطر العثمانيون على مصر .

العثمانيون والحجاز:

كان نظام الحكم المحلي في الحجاز يقوم على نظام الشرافة، أي يتولى الحكم أشراف مكة الذين ينتسبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، بإسم السلطان الذي يحكم مصر حيث يقيمون شعائر التبعية الرسمية أو الاسمية. وكانت مهام شريف مكة تنحصر في تأمين قوافل الحج الآتية من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

وكان من أسباب توجه العثمانيون نحو الشرق مواجهة الخطر البرتغالي الذي هدد السواحل الإسلامية، واستولى البرتغاليون على جزيرة سوقطرة التي تتحكم في مدخل باب المندب عند البحر الأحمر عام ١٥٠٧م ، وإن بقيت عدن في يد المسلمين. كما استولى على جزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربي، واستعمالهم العنف والحرق ضد المدن المطلة على الساحل الشرقي الجنوبي لشبه جزيرة العرب حتى مسقط ، وعجزت الدولة المملوكية عن مواجهة البرتغال في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩م.

ولما نجحت الدولة العثمانية في القضاء على سلطة الدولة المملوكية في بلاد الشام ومصر، فقد تلى سقوط مصر في أيدي العثمانيين أن سقط الحجاز بيدهم تلقائياً، فالحجاز يتبع مصر، لأن الحجاز بلاد فقيرة وكان يعتمد على المساعدات المصرية، وكان سكان الحجاز يهتمون بقافلة الحج المصري.

وحرص السلطان سليم على بسط نفوذه على العالم السني كله، خصوصاً الحجاز لأهميته الدينية ، ولذا أحسن إلى جماعة من الحجازيين كانوا بمصر وأكرمهم عند دخوله القاهرة، وأفرج عن المعتقليين منهم في مصر والذي عارضوا الحكم المصري خصوصاً من القضاة ورجال الدين والعلم الذين أشاروا عليه بأن يكتب إلى الشريف بركات لقبول السيادة العثمانية، وبالفعل قبلها وأرسل الشريف ولده إلى السلطان سليم حاملاً مفاتيح الحرمين الشريفين ، ولما عاد إلى مكة حاملاً تفويض السلطان لوالدة بحكم الحجاز أصبحت الخطبة بإسم السلطان سليم.

وكان من أهم نتائج بسط السيادة العثمانية على الحجاز: ظهور العثمانيين في البحر الأحمر ومحاولتهم السيطرة عليه، ودفع الخطر البرتغالي عنه،واتخاذ اليمن عامة وعون خاصة قاعدة لمواجهة الوجود البرتغالي في المحيط الهندي والبحر الأحمر. كما قامت للدولة العثمانية يمنع المراكب المسيحية من دخول البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز؛واستمر ذلك إلى أواخر القرن ١٨م.

العثمانيون واليمن:

تطلع العثمانيون بعد سيطرتهم على الحجاز إلى اليمن، الذي دخل تحت السيادة العثمانية سلماً.وأطاع اسكندر الجركسي والي اليمن المملوكي أمر السلطان سليم، وصارت الخطبة في اليمن بإسم السلطان سليم، وسمي بإسم "اسكندر المخضرم"؛لأنه عاصر عهدين في حكم اليمن، المماليك والعثمانيين.

وكانت اليمن آنذاك تمر بفترة اضطرابات بسب النزاع بين القواد المماليك،وتمكن أخوهم وهو كمال الرومي عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م،من قتل اسكندر بحجة خروجه عن التبعية العثمانية، وحل محله في زبيد،واستمر الصراع بين القواد المماليك على السلطة في اليمن بعد ذلك.

وسعت الدولة العثمانية لتوطيد حكمها في اليمن،وأرسلت الحملات لهذه الغاية ولمواجهة الخطر البرتغالي. وفي ٢٨يونيو ١٥٣٨م،أبحرت حملة سليما باشا الخادم متجهة إلى اليمن،والتي كانت بداية لجهد عثماني حقيقي للاستيلاء على اليمن،ونجحت في بسط النفوذ العثماني على تهامة وزبيد،وما كادت الحملة تصل إلى عدن في ١٣ أغسطس ١٥٣٨م، حتى فتح حاكمها عامر بن داود الطاهري،أبوابها أمام العثمانيين،ولكن سليمان الخادم لم يحفظ هذا الجميل لعامر بن داود،حيث غدر به وقتله،لتخوفه منه،وأشاع بين الأهالي أنه كان على صلة بالبرتغاليين،وأنه وعدهم بتسليم مدينة عدن،وأرسل إلى السلطان يخبره أنه استولى على عدن قهراً،كما ارتكب جنوده أعمال السلب والنهب في المدينة،وأمر سليمان باشا الخادم بقتل من بقى من آل طاهر،وعين على حكم المدينة أحد سناجق الحملة وهو الأمير بهرام تسانده قوة عثمانية قوامها خمسمائة جندي،وكان القضاء على الطاهريين في عدن وعلى المماليك في زبيد يعني بداية المواجهة المباشرة بين العثمانيين والإمامة الزيدية، ولقد كانت أعمال الغدر هذه سبباً مباشراً لتدهور الوحدة الإسلامية المنشودة لمواجهة الخطر البرتغالي ..

ورغم النجاح الذي حققه سليمان باشا الخادم في بلاد اليمن،إلا أنه فشل في استدراج الإمام شرف الدين من تعز مركز الإمامة الزيدية،فعاد إلى مصر.وكانت أهم نتائج حملته السيطرة على زبيد ومنطقة تهامة في الشمال،والقضاء على الحكم الطاهري في عدن وإخضاعها للعثمانيين وكذلك السواحل اليمنية من الشحر وعدن جنوباً إلى جيزان شمالاً،ولكن الثمن كان طعنة قاتلة لسمعة العثمانيين ووصمة ساحقة قضت على كل أمل في قيام تحالف بينهم وبين القوى الإسلامية في المحيط الهندي، ولكن في عام ١٥٥١م استطاعت الدولة العثمانية عن طريق واليها على مصر مصطفى باشا النشار،أن تزيل ما لحق بالحكم العثماني من سمعة سيئة على أساس التفاهم مع الإمامة الزيدية وتمتع اليمن بحالة من الاستقرار،تمكن العثمانيون خلالها من بسط نفوذهم على الساحل الأفريقي الشرقي،وإرسال حملات بحرية إلى الخليج العربي.

وفي داخل اليمن تمكنت الإمامة الزيدية من التغلب على العثمانيين وطردهم من أغلب بقاع اليمن وعدن، مما جعل الدولة العثمانية ترسل في ١٥٦٨-١٥٦٩م ،حملة كبيرة تحت قيادة سنان باشا لإعادة فتح اليمن وهذا ما يعرف بالاستيلاء العثماني الثاني لليمن،وتمكن سنان باشا من الاستيلاء على عدن والدخول في حرب ضاربة مع الإمامة الزيدية التي قبل إمامها الطاهر في ذلك الوقت أن يحكم باسم السلطاني العثماني على أساس احتفاظه بالمنطقة التي يحكمها والتي تشتمل على: ثلاء والظواهر وصعده وحجة وبعض المناطق المجاورة؛كإقليم الشرق وعفار وحصن ذي مرمر،مع وجود حامية عثمانية رمزية لاتزيد على ثلاثين جندياً تقيم في صعده كرمز للسيادة العثمانية على كل المناطق اليمنية بما فيها المنطقة التي يسيطر عليها الإمام ،وقد تم الصلح على ذلك عام ١٥٧٠م،ولكن الإمام الزيدي المؤيد بالله محمد بن القاسم حارب العثمانيين حتى أخرجهم من اليمن كلية في ١٦٣٥م، وبذلك قامت الدولة القاسمية الزيدية في اليمن.

العثمانيون والعراق:

أدى انتصار السلطان سليم على الصفويين في معركة جالديران اغسطس١٥١٤ م إلى اخضاع شمال العراق في الموصل وديار بكر للحكم العثماني،أما العراق الأوسط والجنوبي فقد ظل بيد دولة فارس،وحتى المناطق التي خضعت

للحكم العثماني لم يكن الحكم فيها مستقراً.كما استمر الصراع العثماني الفارسي على منصب حاكم بغداد.ونجح حاكم فارس عام ١٥٣٠م،في استرداد بغداد وتعيين حاكم عليه بإسم الشاه الصفوي الفارسي.ومما أزم العلاقات العثمانية الصفوية اتصال الشاه الإيراني بالمجر للتعاون معها ضد السلطان العثماني العدو المشترك لهما؛ فأغضب هذا التصرف السلطان سليمان القانوني وتأزم الموقف بين الدولتين،ثم جاءت حوادث الحدود الخاصة بقبائل الأكراد ومراسلات أهل السنة في العراق إلى السلطان سليمان لإنقاذهم من الحكم الشيعي .وساهمت العوامل السابقة بقيام السلطان نفسه عام ١٥٣٣م،بصحبة الصدر الأعظم إبراهيم باشا،بحملة كبيرة على العراق، تمكنت من الاستيلاء عليه ودخول بغداد ١٥٣٤م،وبقي السلطان سليمان بها بضعة شهور لإراحة قواته وتنظيم أحوال هذه الولاية التي كانت تحتاج إلى نوع معين من السياسة،للحساسية الدينية بين الشيعة والسنة،ولذا فإنه قام برحلة في أنحاء العراق،زار خلالها الكثير من أضرحة الشيعة وأوقف مقاطعات ذات ريع وفير للإنفاق من ريعها على المقاصد الدينية الشيعية والسنية على السواء،وزار العتبات المقدسة في الفرات الأوسط وبنى سدَ السليمانية بكربلاء لحمايتها من أخطار الفيضان ثم زار قبر الإمام علي في النجف،وفي نفس الوقت الذي كان يعمل فيه على إرضاء مشاعر الشيعة،كان يعمل فيه على إرضاء مشاعر السنة حتى لا يسئ إلى طرف من الطرفين

وقبل أن يغادر السلطان سليمان القانوني العراق أعلن حاكم البصرة العربي راشد بن مغامس شيخ المنتفق خضوعه إلى السلطان فألحقت البصرة بالممتلكات العثمانية . وأصبحت إيالة عثمانية تتبع باشوية بغداد .

وخضعت معظم المناطق العراقية لنظام الوحدات الإقطاعية للجنود الذين أظهروا الكفاية في الحملة الأخيرة، كما اعترف العثمانيون بالعصبيات الحاكمة وبشيوخ العشائر سواء في مناطق الأكراد أو في المناطق العربية،وقسم العراق خلال العصر العثماني إلى أربع ولايات هي: الموصل، شهر زور، بغداد، البصرة.

والواقع أن الاستيلاء العثماني على العراق لم يضع حداً للصراع العثماني الفارسي حول العراق حيث عاد العراق إلى السقوط أكثر من مرة بعد ذلك في يد الإيرانيين.وظلت فارس تحاول المرة بعد الأخرى الإستيلاء على العراق حتى كانت آخر محاولاتها في ١٧٣٣م ، في عهد نادر شاه.وتجددت الحرب بين الطرفين واستمرت من ١٧٤٣-١٧٤٧م ،حتى وفاة نادرشاه فعقد صلح بين الجانبين حول الحدود التقليدية مع دخول العراق في نطاق الامبراطورية العثمانية، وبذلك انتهى الصراع الفارسي-العثماني حول العراق .

ثانيا : العثمانيون والمغرب العربي:

لم تأت سيطرة الدولة العثمانية وامتداد نفوذها على المغرب العربي نتيجة لاستيلاء عسكري،بل جاء ذلك نتيجة لاشتداد الصراع الذي كان قائماً بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط على دول المغرب العربي في أوائل القرن السادس عشر، حيث أن خطة اسبانيا في تلك الفترة كانت قائمة على غزو المغرب العربي،بعد أن تخلصت من آخر دولة عربية إسلامية فيها عام ١٤٩٢م ،هادفة بذلك تعقب المسلمين الذين هاجروا من الأندلس إلى موانئ المغرب العربي،بعد أن خالف الأسبان شروط التسليم الخاصة باحترام العقيدة الإسلامية،ولذا فإن العرب المسلمين لجأوا إلى الشاطئ المواجه للبحر المتوسط حيث قاموا بدور فعال في تنشيط حركة الجهاد في البحر وشن الغارات المستمرة على ساحل أسبانيا محاولين إثارة بقايا المسلمين وتشجيعهم على الثورة.

كان التفكك السياسي هو السمة الغالبة والسائدة في بلاد المغرب العربي،حيث كان واقعاً تحت تحكم دويلات ثلاث هي : الدولة الحفصية في تونس،ودولة بني زيان في الجزائر،ودولة بني مرين في مراكش،وكان النزاع مستمراً بين هذه الدويلات بل كان مستمراً داخل الدولة الواحدة. كل ذلك سهل على الغزاة الأسبان الاستيلاء على أهم موانئ الجزائر،علاوةً على موانئ مراكش فيما بين سنتي ١٥٠٩-١٥١٥م .

ولما ظهرت الدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر وجب عليها الدفاع عن الدويلات الإسلامية في شمال أفريقيا ضد الخطر الأسباني،وكانت حركة الجهاد البحري آنذاك في الحوض الغربي للبحر المتوسط على أشدها ،

ولمعت قيادات جديدة من بين رؤساء البحر أثرت في تاريخ بلاد المغرب من أمثال: "بابا عروج" وأخيه "خير الدين باربروسا".

وكان عروج قد سبقت له تجربة الأسر في سفن المسيحيين،وتمكن من الهرب والعمل في سفن الحفصيين،وتمكن بالتعاون مع أخيه خير الدين من إنشاء إمارة مستقلة في جزيرة جربة واتخذاها قاعدة بحرية لنشاطهما وجمعا فيها الكثير من المتطوعين،وبدأ بابا عروج في سنة ١٥١٠م، يمارس نشاطه وكان أسطوله آنذاك مكون من عشرة سفن وذاعت شهرته في الجهاد البحري ضد غارات الاسبان.ونجح بابا عروج في استرداد ميناء بجاية من الاسبان،ونقل قاعدة عملياته من جزيرة جربه إلى ميناء جيجل في الجزائر،وفي سنة ١٥١٦م،نجح في صد هجوم أسباني على ميناء الجزائر،وهدد الحصون التي أقامها الأسبانيون أمام الساحل بالهجوم عليها.

وتمكن من توطيد حكمه ونفوذه في المنطقة المواجهة للخطر الأسباني،بل وبسط نفوذه على أقاليم المغرب الأوسط الواحد تلو الآخر.ولما قتل عروج عام ١٥١٨م،خلفه في عمليات الجهاد في بلاد المغرب الكبير أخوه"خير الدين بارباروسا" أي ذي اللحية الحمراء،وقد تحرج موقفه بعد مقتل أخيه فلم يكن أمامه من سبيل سوى الاتصال بالدولة العثمانية،التي كانت آنذاك قد مدت نفوذها على منطقة الشرق العربي،وكان قد تم الاتصال بين خير الدين والدولة العثمانية وطلب من السلطان معاونته عسكرياً في جهاده ضد الأسبانيين وفي ١٥١٨م أرسل إليه السلطان سليم ألفين من الجنود الانكشارية وسمح له بتجنيد الأهالي في الأناضول نفسها حتى تمكن من مواجهة الأخطار الاستعمارية،ويعتبر هذا الاتصال بداية انضمام إقليم المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية،أو اتحاده معها.

وكان خير الدين محاطاً بأخطار داخلية وخارجية عديدة عليه مواجهتها،متمثلة في القيادات القديمة التي كانت قائمة في بلاد المغرب،والتي أزعجتها عملية التقارب بين خير الدين والدولة العثمانية خوفاً من أن يقضي هذا التقارب على سلطانها ونفوذها،والإمبراطورية الأسبانية والتي كان على رأسها في ذلك الوقت شارل الخامس،والتي كانت تسعى في تلك الفترة إلى فرض سلطانها على أوروبا،بل والعالم كله.

في تلك الأثناء كان شارل الخامس،يسعى جاهداً بالتعاون مع الأمراء الحفصيين في الاستيلاء على موانئ تونس مقدراً أهميتها في السيطرة على الملاحة في البحر المتوسط فأعد في سنة ١٥٣٥م،حملة كبيرة ضمت أربعمائة وثمانية وعشرين سفينة وتمكنت الحملة بسهولة من الاستيلاء على مدينة تونس فرد خير الدين على هذه الحملة بغارة مفاجئة على جزر البليار وأسر ستة آلاف أسير عاد بهم إلى مدينة الجزائر التي كانت منذ ١٥٢٩م، قد برزت كعاصمة للمجاهدين وبذلك أصبح انتصار شارل الخامس في الموانئ الواقعة شرقي مدينة الجزائر قليل الأهمية،لإنحصاره بين قوات الجزائر في الغرب وقوات الدولة العثمانية في الشرق.

في تلك الفترة منح السلطان سليمان القانوني العثماني،خير الدين لقب بيكلربيك افريقيه ومنحه لقب قبودان باشا،وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية ، وقام خير الدين بتوحيد أقطار شمال أفريقية واحتل تونس وطرد منها المولى حسن حليف الاسبانيين،وفي ١٥٤١م،عاود الاسبانيين هجومهم على مدينة الجزائر ولكنهم فشلوا في هجومهم هذا. وأصبح خير الدين منذ ذلك الوقت أكثر من مجرد أمير بحر،حيث صار رئيساً لدولة متحدة مع الامبراطورية العثمانية،ومنح السلطان سليمان القانوني ابنه حسن باشا كذلك لقب بيك بكوات بيكلربيك أفريقية.

وهكذا استطاعت الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر أن توحد أقاليم المغرب العربي مع أقاليم المشرق وبخاصة بعد أن تمكن مراد أغا من تخليص طرابلس في سنة ١٥٥١م ،من يد الاسبانيين وفرسان القديس يوحنا.

وأصبحت طرابلس قاعدة من قواعد الجهاد البحري في شمال أفريقيا والتي استمرت في جهادها ضد الاسبان وكل الأخطار الأجنبية.

والواقع أن حركة الجهاد البحري ضد الأخطار الأجنبية وبخاصة الخطر الاسباني،ارتبطت بأسماء كثير من أمراء البحر من أهمهم:العلج علي الذي نجح في تصفية القواعد الاسبانية في تونس ١٥٦٩م ،بعد أن نجح في هزيمة الحفصيين في سهل باجة واستولى على تونس وفر السلطان الحفصي أبو العباس أحمد ولجأ إلى الاسبان في حلق الوادي فأخذ العلج علي البيعة من أهل تونس للسلطان العثماني،وعاد إلى الجزائر ليعد العدة لانتزاع حلق الوادي من يد الاسبان مما أقلق العالم المسيحي ودفع بالبابا إلى اصدار نداء لتكوين حلف مسيحي بهدف الاحتفاظ للمسيحية بقواعدها الأمامية التي تحتلها في بلاد المغرب الكبير وقد استطاعت اسبانيا فعلاً في ٧أكتوبر ١٥١٧م ،أن تحرز انتصاراً حاسماً في معركة ليبانتو قرب خليج كورنت حيث عجز المسلمون بعد هذه المعركة عن مد نفوذهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط وعن الاستيلاء على مالطة.

وقد حاولت اسبانيا بعد معركة ليبانتو بعامين في ١٥٧٣م،احتلال تونس وإعادة حلفائها الحفصيين إلى الحكم ولكن العلج علي تمكن في العام التالي ١٥٧٤م،من إخراج الاسبانيين وحلفائهم الحفصيين من تونس وبصورة نهائية،وتلا ذلك إخضاع القطر التونسي كله.

وظل العلج علي يعلن دائماً استعداده للجهاد بإسم الدولة العثمانية التي عينته قبطان باشا الأسطول العثماني مع احتفاظه بمنصب بيكلربيك الجزائر علاوة على منحه لقب قليج وكان يقول دائما : "لن نصغ لأي اقتراح للسلم قبل إخلاء الأراضي الأفريقية من الكفار".

هكذا امتدت سلطة الدولة العثمانية – نتيجة لعملية الاتحاد بين الاقاليم المغرب والدولة العثمانية – حتى حدود الجزائر الغربية . وقد حاول كل من صالح ريس ،وحسن ريس بن خيرالدين ، مد هذا النفوذ إلى شواطئ المحيط الأطلسي ، وبعد أن وصلت هذه الجهود حتى فاس فإن الخوف من تحرك القوات الاسبانية المرابطة في وهران هو الذي عاق هذه الحركة ، رغم التعاون الذي وجد بين قوات الجزائر وعدد من الرؤساء والقادة البحريين الموجودين في موانئ المغرب الأقصى وبخاصة يحيى ربس الذي عرف بإسم سيد المضيق نظراً لاتخاذه أحد الخلجان في شمال المغرب قرب الحسمية قاعدة له.وهكذا كان رجال البحر هم الوسيلة الفعالة في مد النفوذ العثماني في بلاد المغرب حتى حدود المغرب الأقصى الذي لم يمنعه من الانضمام إلى هذه الكتلة الإسلامية إلا ظروفه الخاصة .

==========

المحاضرة الثالثة (وجدت مكان الثانية)

الحكم العثماني للبلاد العربية

سارت الدولة على نظم حكم تتناسب مع طبيعة البلاد العربية وعاداتها وتقاليد أهلها،وبما يتناسب مع فلسفة الحكم العثماني ذاته،ويمكن إجمال ذلك في قسمين:

أولاً: الحكم العثماني في المشرق العربي:

امتدت فترة التنظيمات العثمانية من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، والتي بدأت بالضعف بعد عصر السلطان سليمان القانوني وتوقف حركة الفتوح العثمانية. وقد وضع العثمانيون تقسيماً إدارياً ومالياً لبلاد المشرق العربي،عرف بنظام الايالات أو الولايات أو الباشويات،فكانت بلاد الشام ثلاث باشاويات هي: دمشق وحلب وطرابلس،ولكل باشوية استقلالها التام عن الأخرى،وخضع هذا التقسيم لتعديلات كثيرة خلال الحكم العثماني.أما

الحجاز فقد بقي تحت حكم الأشراف مع إنشاء ولاية به قاعدتها جدة، عرفت بولاية الحبش، اعتبرت قاعدة للحكم العثماني في الحجاز والبحر الأحمر.أما مصر فقد كانت ولاية متميزة من ولايات الدولة العثمانية.

عناصر الحكم العثماني:

١- الباشا أو الوالي:

له الإشراف على إدارة الولاية،وهو نائب السلطان ويمارس اختصاصاته في الولاية،ومن مهامه رئاسة الديوان الذي يتكون من كبار موظفي الولاية العسكريين والمدنيين،ومن مهامه إنزال العقاب بالمخالفين من رجال الحامية العثمانية،ومراقبة أدائها وعلاقتها بالإدارات المتعددة في الولاية وكذلك بالرعايا،مما ساعد على القضاء على الأعمال المخلة بالأمن.

٢- الكتخدا أو الوكيل:

كان يعين بمرسوم "فرمان" سلطاني عند تعيين الوالي أو الباشا،ومن اختصاصاته القيام بعمل الباشا في حال تغيبه عن العاصمة، أو الخروج على رأس حملة لتأديب الخارجين عن القانون،وكان يرأس الديوان الصغير الذي يعقد يومياً.

٣- ناظر الأموال أو الدفتردار:

وحددت اختصاصاته في الإشراف على جمع الأموال السلطانية"الأميرية"،والإشراف على الأمناء والكتاب في تحصيلهم لهذه الأموال،وأن يهتم بمراقبة الدفاتر التي تسجل بها الأموال المقررة.

٤- القضاء:

سار القضاء في كل ولاية طبقاً لنظام القضاء في الدولة العثمانية،فكانت الدولة ترسل إلى الولاية قاضي القضاة على المذهب الحنفي،ويتبع الهيئة الإسلامية في الدولة،وقد عرف في الولايات بإسم"قاضي عسكر أفندي"أو قاضي الشرع . وكان قاضي القضاة يقوم بتعيين نواب له في محاكم عاصمة الولاية والمدن الأخرى والنواحي. وقاضي القضاة عضو ديوان الباشا،ويشترك في محاسبة الباشا في آخر عهده بالولاية .

٥- حكام الأقاليم :

عين لأقاليم كل ولاية حكام من السناجق والكشاف،وعليهم تحصيل أقساط الأراضي وخراجها،وأن يعمل الحاكم كل جهده ألا تصاب قرية بالخراب.وفي حالة تقصيره يحاسب من الوالي وناظر الأموال،وحكام الأقاليم مسؤولون عن الإشراف على ترميم الجسور،وحفظ الأمن وحراسة البلاد من غارات العربان. وتحذير الكشاف من ظلم الفلاحين،وأن لا يعملوا على إحياء جرائم سبق أن حكم فيها.

٦- مشايخ العربان:

من مسؤولياتهم تعمير البلاد والمزارع في مناطق نفوذهم،وكذلك حماية البلاد من المفسدين من طائفة العربان، ومعاقبتهم. كما ضمن لهم النظام،الحماية من جور أمير الأمراء"الوالي أو الباشا"،فلا يجوز له عزل أحد مشايخ العربان. ويقوم مشايخ العربان بتقديم الأموال السلطانية المطلوبة منهم إلى الوالي، وهذه الاختصاصات ضمنت ولاء مشايخ العربان وعدم إثارتهم للفتن.وتحولوا خلال فترة الحكم العثماني إلى عامل إيجابي بعد أن كانوا عاملاً سلبياً .

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم امتداد النفوذ العثماني على المشرق العربي إلا أن نقطة ضعفه كانت في منطقة الخليج العربي،لأن النفوذ العثماني لم يمتد إليها إلا في القرن التاسع عشر،بعد أن تعرضت هذه الحدود إلى النفوذ الأوروبي البرتغالي فالهولندي فالانجليزي ثم الروسي.

وكان ضم الدولة العثمانية للمشرق العربي قد صبغها بصبغة شرقية إسلامية،واستطاعت الدولة العثمانية أن تدفع عن المنطقة خطر الاستعمار الأوروبي حتى أواخر القرن الثامن عشر، وربما خوفها من هذا الاستعمار ساهم في عزلة المنطقة العربية سياسياً واقتصاديا وحضارياً عن الأحداث الدولية.

سمات الحكم العثماني للمشرق العربي:

- تميز بأنه حكم غير مباشر قام على أن للدولة وظائف لا تتعداها،انحصرت في الدفاع عن الولايات ضد الأخطار الخارجية،الذي كان من واجب الجيش إلى جانب حفظ الأمن الداخلي،وتحصيل الأموال الأميرية،والفصل بين السكان في الخصومات. واعتبرت الدولة العثمانية الخدمات العامة كالتعليم والصحة خارج مسؤولياتها وتركتها للأفراد والجماعات، لذلك كان تأثير الحكم العثماني محدود في المجتمعات الإسلامية في المشرق العربي واحتفظت تلك المجتمعات بثقافاتها المحلية وتقاليدها التي كانت قبل الحكم العثماني.

- كان الحكم العثماني في بعض مناطق المشرق سطحياً أو اسمياً،مثل أجزاء من شبه الجزيرة العربية ولبنان وبعض أجزاء سورية.

- كان حكماً عسكرياً،وأصبح الجيش أداة من أدوات الحكم،وشاركت الحاميات العثمانية في الولايات مشاركة فعلية في إدارة البلاد، بل واستغلالهاً والحصول على كثير من الامتيازات الخاصة بهم كما حدث في مصر.

- اتسم الحكم العثماني بالجمود؛لأن الدولة لم تحاول بعد عهدي سليم وسليمان إحداث تغيير في القوانين السابقة باعتبار أساليب الحكم البسيطة أصلح لكل من الحكام والمحكومين.

وخلاصة الأمر فإن السلطة الإدارية في الولايات العثمانية لم تكن مركزة في هيئة إدارية واحدة،إنما تكونت من عدة هيئات تتنازع الاختصاصات مما ساهم في إحداث خلل في النظام من وقت لآخر،ومن ولاية لأخرى،ولذلك شهد المشرق العربي وبصورة مستمرة ثورات الجند ضد الولاة، وضد الإدارة العثمانية برمتها، مما أضعف الإدارة،ودخلت أجهزة الحكم في صراع مستمر فيما بينها. وقد يكون فهم العثمانيين لوظيفة الدولة ولتكوين المجتمع هو المسؤول في المقام الأول عن ضعف حكمهم، وأصبحت كل طائفة من طوائف المجتمع تخضع لدستورها غير المكتوب أكثر من خضوعها للنظم الحكومية،الأمر الذي رحبت به الحكومة لأنه يريحها من كثير من الأعباء،التي هي في الأصل من صميم وظائف الدولة،لكنها تنازلت عنها طواعية طبقاً لسياستها العامة القائمة على عدم التدخل في أمور السكان، وتركتها تسير وفقاً لنظام كل طائفة،أو للنظام الذي يرتضونه لتسيير أمورهم .

ثانيا : الحكم العثماني في المغرب العربي :

تكونت في شمال أفريقيا ثلاث ولايات عثمانية،كانت حسب ترتيب تكوينها: الجزائر، طرابلس، تونس. حمل حاكم الجزائر لقب"بيكلربيك" أي رئيس البكوات،وعام ١٥٩٠م، وعلى أثر ثورة عسكرية انفصلت تونس عن الجزائر، وحمل حاكمها لقب"الداي" واتصل باستانبول مباشرة، وتحولت الجزائر إلى باشوية. وتمتعت ولايات شمال أفريقيا بشبه استغلال، حتى تأسست بعض الأسر الحاكمة،مثل الأسرة الحسينية في تونس والأسرة القرمانلية في طرابلس.بينما سيطر الجند ورجال البحرية على الجزائر، وأصبح رمز التبعية للدولة العثمانية،هو استصدار الفرمانات لتعيين الحكام الذين اختارهم الأوجاق"المجلس الأعلى للجند"،والدعوة للسلطان في خطب الجمعة،وإرسال المعونات العسكرية للدولة في حروبها.

وقد شهدت الجزائر عدة تغييرات في نظام الحكم خلال العهد العثماني،ابتداءً من فترة حكم البيكلربكوات (١٥١٨-١٥٨٨)،ثم تحولت الجزائر إلى ولاية عادية يتولاها أحد الباشاوات الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات فقط. ثم سيطر الأوجاق على الحكم في الجزائر عام ١٥٨٨-١٦٥٩، وفي عام ١٦٥٩م انتقلت السلطة إلى الأوجاق الذي نصب أحد أعضائه (دايا) على النمط المتبع في تونس. ثم مرت الجزائر بفترة من الفوضى(١٦٥٩-١٦٧١م) وسيطر الانكشارية على السلطة .

وكانت الفترة الرابعة(١٦٧١-١٨٣٠م) قد امتازت باختفاء الصراع بين الانكشارية ورؤساء البحر،واستقر بعض الدايات في الحكم لفترة طويلة. وحمل دايات الجزائر منذ عام ١٧١٠م، لقب "باشا".

ولما استقر نظام الدايات تكون في مدينة الجزائر ديوان مستقل مكون من خمسة أعضاء أشبه بمجلس الوزراء.اختص كل عضو بناحية من نواحي الإدارة. وتجمع لدى الدايات ثروة ضخمة من الهدايا، ومن نصيبهم من غنائم البحر، والإتاوات التي كان يدفعها لهم حكام الأقاليم. وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث أقاليم هي : قسطنطينية في الشرق ووهران في الغرب وتيطرى في الوسط. وكان يحكمها بكوات أشبه بملتزمين يؤدون مبالغ معينة للداي .

أما النظام الإداري في تونس، فقد استفاد سنان باشا عقب فتحها عام ١٥٧٤م، من النظم التي كانت سائدة في عهد الحفصيين. ولما شعرت حامية تونس بقوتها أرادت الانفصال عن الجزائر،واختارت أحد أفرادها حاكم للنيابة بإسم(الداي) ، ووافقت حكومة الآستانة على ذلك عام ١٥٩٠م . ولما تولى الأسطى مراد(١٦٣٧-١٦٤٠م)، الذي كان أحد حكام الأقاليم،استطاع أن يخضع حكومة الداي في تونس لنفوذه الشخصي، وتمكن من توريث الحكم للأسرة المرادية حتى عام ١٧٠٢م ،وحصل مراد بك على لقب(باشا) .

وكان يرمز لقب"الباي" في تونس إلى تولي منصب هام،هو في الغالب ملتزم الضريبة في إقليم أو رئيس الجند،وتمسك أفراد الأسرة الحسينية بلقب الباي والتي امتد حكمها منذ ١٧٠٥م وحتى إعلان الجمهورية التونسية عام ١٩٥٧م . وكانت تونس تدفع جزية سنوية على شكل كمية من الزيت لإنارة المسجد الكبير في الجزائر. وتوقف الدفع على أثر الحرب بين النيابتين ١٨٠٦-١٨٠٩م .

وقد حافظت الأسرة الحسنية على الطابع العثماني في حياة القصر، والإعتماد على الإنكشارية،واتخاذ المذهب الحنفي مذهباً رسمياً، رغم أن المذهب المالكي هو السائد في شمال أفريقيا.

أما طرابلس فقد مرت خلال الفترة(١٥٥١-١٧١١ م)،بفترة فوضى واضطراب نتيجة لسوء الإدارة والحكم، وقيام الفتن بين الإنكشارية والقولوغلية (طبقة اجتماعية نتجت عن اختلاط الإنكشارية بالأهالي، وكانت مهمتهم الأصلية الدفاع عن البلاد) ،وتعرض الولاة للعزل ،وكان القولوغلية يولون من يشاءون في منصب الولاية حتى وصل الأمر سنة ١٠٩١هـ/١٦٨٠م أن ولي ترزيأ اسمه(إبراهيم الترزي) . واستمرت الاضطرابات حتى ولي الحكم أحمد القرمانلي الحكم سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م، واستمر حكم أسرته حتى عام ١٨٣٥م . وكان حكم طرابلس في عهد هذه الأسرة استمراراً للفوضى ولم تضع لنفسها سياسة مرسومة لحكم البلاد وتنميتها .

وخلاصة الأمر لم تكن نظم الحكم العثمانية في البلاد العربية على المستوى المطلوب لحماية البلاد وصونها من الفساد والاضطراب،مما أدى إلى فساد الأحوال خاصة لدى الجند.وفي القرن الثامن عشر خاصة أصيبت تلك النظم بضعف شديد.

:ثالثاً:العثمانيون ومسألة الخلافة

استمرت الخلافة في آل عثمان حتى عام ١٩٢٤م، وانتقال الخلافة إلى العثمانيين يعود إلى عهد السلطان سليم الأول،وذلك في أعقاب انتصاره على السلطان الغوري في معركة مرج دابق في حلب، ولما دخل إلى حلب قابل الخليفة

المتوكل واصطحبه معه إلى مصر،واستخدمه السلطان سليم في الوساطة بينه وبين طومان باي، ولما فشلت وساطته،أسبغ السلطان سليم على المتوكل بعض المكانة ومنحه بعض النفوذ،فأساء المتوكل استخدامها فأرسله سليم إلى الآستانة فعاش حياة ملؤها الاستهتار فأضطر السلطان سليم إلى حبسه ، وظل حتى وفاة السلطان سليم وخلفه السلطان سليمان القانوني الذي أخرج منه وأعاده إلى مصر، وظل حاملاً للقب خليفة حتى وفاته سنة ٩٥٠هـ/١٥٤٣م ، فمات دون أن يحس أحد بانتهاء الخلافة العباسية من الوجود.

ورغم غموض قصة تنازل المتوكل عن الخلافة للسلطان سليم،فقد كان أول من أشار إليها المؤرخ الروماني دسوون عام ١٧٨٨م.وكان السلطان سليم بعد فتحه لمصر يعتز بلقب(خادم الحرمين الشريفين) الذي كان يستعمله السلاطين المماليك بحكم تبعية الحجاز لهم. وطالما كان لقب الخلافة مرادفاً للسلطنة قبل السلطان سليم،وأصبحت السلطنة والخلافة منصبين يقوم أحدهما مقام الآخر . لكن اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب الخليفة لم يظهر إلاّ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بسبب الظروف السياسية التي أحاطت بالدولة العثمانية ومواجهتها لدول أوروبية رغبت بالاستحواذ على البقاع الإسلامية، لذا فتمسك السلاطين العثمانيين بالخلافة جاء ليعطيهم الحق في فرض سلطة روحية على المسلمين خاصة الخاضعين منهم لسلطة دولة مسيحية؛ كما حدث في معاهدة كتشك قينارجة عام ١٧٧٤م، حيث نص لأول مرة في وثيقة رسمية على حمل السلطان العثماني لقب خليفة، ونصت على اعتبار المسلمين في بلاد القرم التي استولت عليها روسيا تحت السيادة الروحية للسلطان العثماني، وله حق تعيين القضاة والمفتي في هذه البلاد . وكان الدافع وراء اتخاذ السلطان العثماني في هذا اللقب الديني،هو تغطية الهزيمة التي منيت بها الدولة العثمانية أمام روسيا في القرم.

وزاد تمسك آل عثمان بالخلافة خلال القرن التاسع عشر الميلادي،خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني(١٨٧٦-١٩٠٩م)، حينما واجهت الدولة اعتداءات الدول الأوروبية المستمرة على أملاكها. ورغم محاولات السلطان عبد الحميد تقوية قبضته على العالم الإسلامي باعتباره خليفة المسلمين وتأييده لحركة الجامعة الإسلامية، إلا أن الطابع الاستبدادي الذي اتسم به ، وقسوته في قمع الحركات التحررية، إلى جانب الظروف الدولية، ونشاط الحركة الاستعمارية؛ لم تساهم في إنجاح جهود السلطان عبد الحميد، وإن استمرت الخلافة العثمانية حتى إلغائها عام ١٩٢٤م . والخلاصة أن سلاطين آل عثمان سواء حدث لهم تنازل عن الخلافة أم لم يحدث فإنهم لم يتمسكوا بها إلا في أواخر عهد سلطنتهم،حينما رأوا أن الظروف الدولية تحتم عليهم التمسك بالخلافة كسلطة روحية.

==========

المحاضرة الرابعة (وجدت مكان الثالثة)

حركات الإصلاح السلفي في البلاد العربية خلال الحكم العثماني

الدعوة السلفية .. الوهابية:

كان التيار الديني من أهم التيارات التي مرت بها البلاد العربية في العصر الحديث تحت الحكم العثماني، المتمثل في الحركات السلفية،وأولها الدعوة السلفية (الوهابية)، التي كانت الأم لكل الحركات السلفية في لعالم الإسلامي . ولدراسة الدعوة السلفية النجدية نستعرض الأوضاع التي كانت سائدة في نجد المهد الذي ظهرت فيه الدعوة.

الحالة الإجتماعية: والتي تميزت بما يلي :

١- القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية

٢- السكان إما بدو أو حضر

٣- تحكم العرف والتقاليد الموروثة في القبيلة

وقد لعبت هذه الأمور دوراً هاماً في تاريخ السكان الاجتماعي،فكل قبيلة لها شيخها الذي له الرياسة فيها، وهو عادة أوفر أفراد القبيلة ثراءً،وهو الرجل الذي يشار إليه بالبنان بين أفرادها. ووجد بين أفراد القبيلة التفاوت في الغنى والفقر، وكذلك منهم البدو الرحل، والحضر المستقرون. وهناك تفاوت في الطباع بينهما، وكان المجتمع النجدي القبلي يعتمد على عنصر القوة، فبالقوة يستطيع الفرد السيطرة على منطقة بحيث يصبح أميرها المطاع فيها، وكان الغزو سبيلاً للرزق والثراء،ورغم اشتغال بعض النجديين في التجارة وتنقلهم بين البلاد العربية المجاورة لنجد،إلاّ أن التجارة فقدت أهميتها كمورد رزق نظراً لفقدان الأمن والاستقرار قبل انتشار مبادئ الدعوة السلفية في نجد.

الحالة الدينية:

ساد الجهل لدى أكثر السكان وسيطرت عليهم البدع ، وتمكنت في نفوسهم عقائد بعيدة عن تعاليم الإسلام،وأصبحوا يقدسون الأولياء، وانتشرت الأضرحة والقبور في كل مكان، ففي الجبيلة قبر زيد بن الخطاب الذي كان أهل نجد يحجون إليه، لاعتقادهم أنه يقضي لهم حوائجهم، وغير ذلك من الاعتقادات في بعض الأشجار والأماكن.وهذه الأحوال لم تكن قاصرة على نجد بل في معظم بلاد شبه الجزيرة العربية وما يجاورها من البلاد العربية. وكانت تلك الحالة السيئة بحاجة إلى مصلح لإصلاحها وبلورتها في إطار إسلامي صحيح. وكان المذهب الحنبلي هو السائد في إقليم نجد،وكان من بين الذين اهتموا بدراسة وتدريس مذهب أحمد بن حنبل في نجد جدُّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ووالده، فقد كان بيت هذه الأسرة ملتقى لطلاب العلم والراغبين في دراسة المذهب الحنبلي رغم ضعف انتشاره في الأقطار الإسلامية الأخرى،وساعد انتشار المذهب الحنبلي في نجد على انتشار مؤلفات ابن تيمية وهو على المذهب الحنبلي في المنطقة،فرجحت كفته على غيره من المذاهب خصوصاً عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب

الحالة السياسية:(النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي):

كان إقليم نجد قبيل ظهور الدعوة السلفية الوهابية مقسماً إلى عدد من الإمارات الصغيرة، لكل منها أميرها الذي يعمل على حمايتها وإدارة شؤونها.ولم يخضع إقليم نجد للدولة العثمانية حتى ذلك الوقت، فلم يشهد ولاة عثمانيين ولا حاميات تركية، وقد يعود ذلك أن الدولة العثمانية لم تهتم بالسيطرة على المناطق الداخلية، التي لا فائدة ترجى منها، رغم وجود النفوذ العثماني في الحجاز والأحساء، وإن كانت إدارة الإحساء الفعلية بيد قبيلة بني خالد منذ عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م.

ولم تجمع رابطة سياسية بين إمارات نجد الصغيرة، بل إن العلاقات بينها سادها الفتور والمحاربة في أكثر الأوقات، وكان من أشهر الأسر النجدية الحاكمة في ذلك الوقت آل معمر في العينية،ودهام بن دواس في الرياض، وآل زامل في الخرج، وآل سعود في الدرعية، والتي أصبحت لاحقاً قاعدة دينية وحربية وسياسية لدولة لعبت ولا تزال دوراً هاماً في تاريخ شبه الجزيرة العربية بوجه خاص، وفي التاريخ العربي بوجه عام .

تنتسب الأسر السعودية إلى عشيرة عنزة وهي من قبائل ربيعة، وهي من أكثر القبائل العربية عدداً، فمنها فروع في نجد والعراق وسوريا.وكان مانع المسيب الملقب بالمريدي، جد آل سعود، يقطن بلدة الدروع من أعمال القطيف، وتربطه بابن درع رئيس حجر اليمامة والجزعة المعروفين قرب الرياض، صلة نسب ومصاهرة، وكانت بينهما مراسلة أسفرت عن مجيء مانع المريدي إلى ابن درع عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م.

فأقطعه الأخير أرض المليبد وغصيبة المعروفين،بالقرب من الدرعية،فاستقر بها وأسرته، واستطاع حلفاؤه ضم المناطق المتاخمة لحدود المليبد وغصيبة .

ولما آل حكم الإمارة إلى مقرن بن مرخان اختار الدرعية عاصمة له، وذلك عام ١١١٠هـ/١٦٨٢م، ثم آل الحكم لحفيده محمد بن سعود(١١٣٨-١١٧٩هـ/١٧٢٥-١٧٦٥م)، الذي بعهده بدأت الإمارة السعودية طوراً جديداً في حياتها، بتحالف الأمير محمد مع صاحب الدعوة السلفية الشيخ محمد بن عبد الوهاب - كما يتضح - .

<u>محمد بن عبد الوهاب ودعوته السلفية:</u>

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١١١٥هـ/١٧٠٣م، في العينية بوادي حنيفة من أعالي نجد، وكان والده قاضي العينية، زمن إمارة عبد الله بن محمد بن معمر.وكان والده إلى جانب القضاء يقوم بتدريس التفسير والحديث والفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويرجع نسبه إلى قبيلة تميم التي حافظت على موطنها في إقليم نجد.وقد نشأ الشيخ محمد وهو يراقب مجلس أبيه ويستمع لأحاديث القوم ومجادلاتهم . وكان يحضر حلقات الدرس التي يخصصها والده لطلابه، فنشأ واسع الثقافة بالنسبة لأبناء جيله، وحفظ القرآن في العاشرة من عمره، وشغف بالعلم والدراسة خصوصاً مؤلفات أحمد تقي الدين ابن تيميه.وحج واعتمر وهو في سن الثالثة عشرة، وزار قبر الرسول عليه السلام، ورأى في الحجاز بعض مظاهر الشرك التي أثارت روح المقاومة لهذه الأمور في نفسه .

ورحل صاحب الدعوة بعد ذلك في طلب العلم، فذهب أولاً إلى الحجاز، حيث التقى بالعالم النجدي الشيخ عبد الله بن إبراهيم آل السيف، وتوثقت بينهما الصلة، كما اجتمع بالمدينة أيضاً بالشيخ محمد حياة السندي المدني وأخذ منه وأجازه. ثم رحل إلى العراق وزار بغداد والبصرة، التي مكث فيها أربع سنوات فدرس على يد الشيخ محمد المجموعي اللغة والحديث وهاله هناك غلاة الشيعة الذين يجلون الأولياء ويقدسون قبورهم، فأبدى مقاومة لهم وشرع يبين حقائق التوحيد في مجالسه. وضاق أهل البصرة بالشيخ وآرائه، وحملوا عليه وأخرجوه من بلدهم، ثم قصد الإحساء ونزل عند الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الاحسائي، ولم تطل إقامته في الاحساء، فعاد إلى حريملاء، حيث كان أبوه، وكان آنذاك في نحو السابعة والثلاثين من عمره، وقد اكتمل نضجه وازدادت تجاربه.

ومن العوامل التي أثرت في تكوين شخصية محمد بن عبد الوهاب بالإضافة إلى البيت والرحلة، كانت شخصية ابن تيمه الذي عاش في القرن الثامن الهجري، فقد عكف على دراسة آثاره ودرسها وتفهمها وأخذ عنها وكانت المبادئ التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب هي نفس المبادئ التي سبقه بها ابن تيمية بأربعة قرون فكل منهما نادى بالرجوع إلى الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ومقاومة البدع والخرافات التي ألصقت بالإسلام، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعتبر تطوراً تاريخياً لدعوة ابن تيمية.ومن مبادئ ابن تيمية التي أثرت في شخصية محمد بن عبد الوهاب، أن الاجتهاد باب مفتوح أمام كل راغب، وأن الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح هي المصدر الأساسي لكل مجتهد حتى ولو خالف رأي الائمة الأربعة، ومات الشيخ ابن تيمية في سجنه بقلعة دمشق عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، ولم يستطع أحد بعد وفاته إحياء مبادئه حتى قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر الهجري ينادي بدعوته التي فيها إحياء لدعوة ابن تيمية .

الدعوة السلفية ومبادؤها:

رغم تعدد التسميات التي أطلقت على تلك الدعوة سواء اسم المذهب أو الوهابية فهي تسميات تجانب الدقة، فدعوة الشيخ ليست بمذهب جديد في الإسلام، كما كان يؤكد صاحب الدعوة بنفسه بل هي دعوة إلى الله وحده لا شريك له وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وذكر ابنه عبد الله ذلك أيضاً لعلماء مكة سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م، فقال:"مذهبنا في الأصول مذهب أهل السنة والجماعة وطريقتنا طريقة السلف"، فوصف الدعوة بالمذهب فيه مغالاة.أما وصفها بالوهابية فقد أطلقه عليها خصوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليظهروا للناس أن ما يدعو إليه الشيخ بدعة جديدة خارجة على مبادئ الاسلام. بل إن أعداء الدعوة من العثمانيين ومن جاراهم غالوا في ذلك وأطلقوا على أتباع الدعوة الروافض والخوارج.

أما أتباع الدعوة فيطلقون على أنفسهم اسم"حنابلة أو السلفيين أو الإخوان الموحدين"،وربما كان الوصف الأنسب المطابق للدعوة ولتمييزها عن الدعوات الاصلاحية الأخرى التي ظهرت في العالمين العربي والإسلامي هو إسم (الدعوة السلفية النجدية) ، ومن المبادئ التي ارتكزت عليها: أولاً: الدعوة إلى التوحيد، ثانياً: الاجتهاد

وقد جد الشيخ في تعريف أهل نجد، بأصول التوحيد وألف أثناء إقامته في حريملاء كتابه: (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) الذي انتشر وذاع بعد وفاة والد الشيخ عام ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، لأن الشيخ كان يساير والده واختلف معه حول أسلوب الدعوة.

انقسم الناس في حريملاء وخارجها تجاه دعوة الشيخ، فمنهم من أيدها ومنهم من عارضها وفريق ثالث وقف مشدوهاً مستغرباً مما يسمع،وكان ممن عاداه بعض العلماء والأمراء وأهل البصرة والإحساء؛ وقد عاداه العلماء لأنهم رأوا فيما يدعو إليه تقويضاً للمكانة التي كانت لهم لدى العامة وإيصادا لأبواب الرزق التي يتكسبون منها، ومن أشد الذين عارضوا الشيخ ودعوته سليمان بن سحيم وأبوه محمد، وهما من مطوعة الرياض.

جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب لنشر دعوته:

مرت جهود الشيخ بمرحلتين متميزتين هما :

أولاً: مرحلة الجهد الفردي

ثانياً: مرحلة الجهد الجماعي

كان الشيخ في المرحلة الأولى يقف وحيداً يحاول كسب الأنصار لدعوته، وبدأت تلك المرحلة مبكراً أثناء طلبه العلم في المدينة المنورة وفي البصرة حيث أعلن حربه على البدع التي يرتكبها أهلها، ولما عاد إلى حريملاء بدأ يبث دعوته بين الناس، وأنكر عليهم ما يقومون به من الأمور الشركية، وبعد وفاة والده عام ١٧٤٠م، أعلن دعوته صراحة وشاع أمره في بلدان العارض: حريملاء، والعينية، والدرعية، والرياض. ولما لم يطب له المقام في حريملاء، وتعرض للإعتداء، نقل الشيخ نشاطه إلى العينية مسقط رأسه، وذلك بتأييد أميرها عثمان بن حمد بن معمر، الذي اتبع الدعوة وناصرها حيث بدأت هناك مرحلة الجهد الجماعي وازداد أتباع الشيخ وتلاميذه، وانتقل بدعوته من الميدان النظري إلى التطبيق العملي، من هدم القباب التي على القبور ومنها قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة، وأخذ يقطع الأشجار التي كان يقدسها سكان نجد. وقام الشيخ في العينية بتطبيق حد الرجم على امرأة اعترفت بزناها،وأثبتت ذلك بالشهود العدول، وشارك أمير العينية في رجمها وطار الخبر في كل الأنحاء، واشتهر أمر صاحب الدعوة بصورة خشي منها أعداؤه من العلماء والأمراء فكتبوا إلى علماء الاحساء والبصرة والحرمين يؤلبونهم عليه ويخوفونهم من دعوته حتى شكوا أمره و أمر عثمان بن معمر إلى سليمان بن محمد، رئيس بني خالد والأحساء (١٧٣٦-١٧٦٢م) ،وكانت له اليد الطولى في نجد ونواحي العراق وكان عثمان عاملاً له.

وسارع سليمان بالكتابة إلى عامله في العينية، وطالبه بقتل الشيخ وهدده يمنع التجارة عنه وقطع خراجه. فخاف عثمان بن معمر من رفض طلب زعيم بني خالد وأمر الشيخ بمغادرة العينية إذ لا يقدر على حمايته، وقصد الشيخ الدرعية التي له فيها الاتباع، ومن بينهم أخوا أميرها ثنيان ومشاري أبناء سعود، لعلها تكون المكان الأنسب لمواصلة نشاطه، فكان رحيله إلى الدرعية بداية لدور جديد في تاريخ الدعوة والأسرة السعودية، إذ وسع الشيخ دائرة جهوده بعد أن وجد قوة السلاح التي تؤيده لنشر مبادئه.

وتميزت المرحلة الثانية بأن أصبح للشيخ تلاميذ في معظم بلاد نجد، وساهم عثمان بن معمر في نشر الدعوة. أما في الدرعية فقد وجد أكبر العون من أميرها محمد بن سعود لمواصلة جهوده – كما سيتضح -.

تقويم الدعوة السلفية:

لم تأت الدعوة السلفية بمذهب جديد في الدين الإسلامي، ولم تخرج عن مبادئ الاسلام، وهي دعوة سنية سلفية، تؤمن بمذهب أهل السنة والجماعة وطريق السلف الصالح، فالدعوة في الأصول تعتمد على مصدريين أصليين للتشريع هما: القرآن والسنة، وفي الفروع تعتمد على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

ورغم جوانب المغالاة في الدعوة السلفية التي أشار إليها البعض(أنظر الكتاب المقرر ص ٨٩-٩٠)؛ فمما لا شك فيه أنها أصبحت في مقدمة الحوادث التي كان لها تأثير كبير في هز الركود الذي سيطر على العالم العربي في تلك المرحلة من التاريخ. وكانت رائدة في مجالها، رغم صعوبة الظروف التي أحاطت بها، وانتشرت أفكارها وأصبحت نموذجا للحركات الاصلاحية التي جاءت بعدها؛ فكانت كالنهر الكبير الذي تتفرع منه جداول صغيرة.

==========

المحاضرة الخامسة

الدعوة السلفية والتغيير في أحوال شبه الجزيرة العربية :

:الدعوة السلفية والحركات الاصلاحية في العالم العربي

الدعوة السلفية والتغيير في أحوال شبه الجزيرة العربية:

أولاً: دخول الأمير محمد بن سعود في الدعوة :

وصل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية ونزل عند عبد الله بن سويلم، ثم انتقل إلى دار تلميذه أحمد بن سويلم حيث اجتمع بأنصاره ومريديه، وكان منهم ثنيان ومشاري أخوا الأمير محمد بن سعود اللذان حاولا إقناع الأمير بمقابلة الشيخ، فتردد بادئ الأمر، فلجأ الأخوان إلى زوجته موضي بنت أبي وطبان من آل كثير، وكانت ذا فطنة وذكاء فاقتنع الأمير بقولها ودعا أخاه مشاري الذي استعطف الأمير ليذهب بنفسه لمقابلة الشيخ ، وبالفعل سار الأمير محمد بن سعود إليه في بيت أحمد بن سويلم . وتقابل الطرفان لأول مرة واتفقا بعهد وميثاق على أن يناصر الأمير الدعوة والجهاد في سبيل الله وأن لا يهجر الشيخ الدرعية إلى مكان آخر إذا ما اتسع أمر الدعوة. وبسط الأمير يده وبايع الشيخ.وتم التحالف بينهما على نصرة الحق ومحاربة مظاهر الشرك ، ودل هذا التحالف على بعد نظر الأمير محمد بن سعود السياسي، إذ من خلاله يستطيع توسيع سيطرة آل سعود وبسط سلطانهم على بقية بلدان نجد عن طريق الجهاد الديني الذي حالف الشيخ عليه.

وكان الاتفاق بين الأمير والشيخ، النواة الأولى في بناء صرح الدولة السعودية الأولى، وعلو شأن آل سعود وذلك سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م، ولما ذاع أمر الاتفاق أتى الوافدون إلى الدرعية من كل مكان في نجد. وتحولت الدرعية إلى عاصمة دينية وسياسية وحربية، وضاقت الدرعية عن تحمل ذلك العدد الغفير الذي تجمع فيها، وكان أهلها في ضيق مالي، ثم تحسنت أحوالهم بعد ذلك سبب ما حصلوا عليه من الزكاة والغنائم التي أصبحت تأتي من البلدان التي خضعت للدرعية. ولما علم عثمان بن معمر أمير العينية بالاتفاق سعى ورجاله لإرجاع الشيخ إلى بلده، لكنه لم ينجح فرجع إلى العينية حائراً في أمره وإن أبدى مناصرته للشيخ ولأمير الدرعية، ولكن تصرفاته لاحقاً تجاه الدرعية أكدت عدم صدقه.

ثانياً:الدعوة السلفية والتغير السياسى :

فوجئ الناس في شبه الجزيرة العربية بخبر اجتماع قبائل نجد تحت قيادة واحدة، وأذهلهم ذلك الاتحاد الذي أخذ بالتوسع على حساب أقوى الكيانات الموجودة، مثل بني خالد في الاحساء والأشراف في الحجاز.واستطاعت الدولة السعودية أن تخلق كياناً سياسياً كبيراً، لم تشهده الجزيرة العربية منذ انهيار الدولة الإسلامية، وقد شملت الدولة السعودية المناطق الممتدة من الخليج في الشرق إلى البحر الأحمر في الغرب ومن بادية الشام والعراق شمالاً حتى اليمن ومسقط جنوباً.وبذلك قد خلقت تغييراً سياسياً داخل شبه الجزيرة العربية.

وخلقت الدولة السعودية تغيير سياسياً على نطاق أوسع عندما اصطدمت بحكام مسقط وساحل عمان حيث بدأ هؤلاء الاستعانة بالانجليز، الأمر الذي أدى إلى اهتمام الانجليز بمنطقة الخليج، ولم يحاولوا التدخل حتى تقضى هذه القوى العربية على بعضها فلا تقوم بينهما وحدة سياسية.

وخلقت الدولة السعودية تغييراً كبيراً في سياسة محمد علي باشا حاكم مصر، الذي كان قابعا في مصر ولكن تكليف الدولة العثمانية له بالقضاء على الدولة السعودية، أثار في نفسه آمالاً سياسية عريضة، إذ حملاته على بلاد العرب فتحت ذهنه للتوسع.وأدت حروبه في الجزيرة العربية وبلاد الشام إلى إعلاء مكانته السياسية ووسعت أملاكه.

وقد ترتب على قيام الدولة السعودية تغييراً سياسياً في أفكار أمراء شبه الجزيرة العربية، فبعد انهيار الدولة، تولى آل معمر حكم نجد لكن آل سعود سرعان ما استعادوا قوتهم، وأقاموا دولتهم الثانية، وأصبحت لها علاقاتها مع الدول الأخرى.وهكذا حدث تغيير في الفكر السياسي فقد أصبح مطمح الأمير، دولة كاملة لا قبيلة كما كان عليه أسلافه.

ثالثاً:الدعوة السلفية والتغيير الاجتماعي والاقتصادي :

كانت الرابطة التي تجمع بين أبناء المجتمعات البدوية في شبه الجزيرة العربية هي رابطة الدم أو العصبية واطمئن البدوي إلى هذه الرابطة، كما تعصب العرب في الجزيرة إلى عاداتهم وتقاليدهم. ولما ابتعدوا عن عصر الإسلام وانتشر الجهل بينهم جهلوا أصول الإسلام الأولى،وسيطرت عليهم البدع والخرافات.

وجاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته السلفية لمقاومة البدع والخرافات والعادات السيئة،وعندما عاضده آل سعود على ذلك استطاعوا أن يؤسسوا دولتهم ويقيموا مجتمع سياسي واحد، يجمع بين القبائل المتفرقة في حوزة سلطان واحد. وساهمت هذه الدولة بالتغير الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع، فالناظر إلى هذا المجتمع سنة ١٧٤٥م، ثم سنة ١٨٠٠م، يرى أن ليس للجمادات سيطرة على عقول الناس كما كان الحال سنة ١٧٤٥م، وكيف توحدت القبائل والإمارات الصغيرة باديها وحاضرها في مجتمع سياسي واحد، يدين بالولاء لأسرة آل السعود.وأصبح هذا المجتمع يحس بوجود طبقة حاكمة لها السيطرة والولاء، وأن الطبقة المحكومة عليها التزامات نحو الطبقة الحاكمة ولها حقوق.

وكذلك حدث تغيير اجتماعي في العلاقة بين العلماء والعامة، فقد أصبحت نظرة العامة إلى العلماء تقوم على التعلم منهم وأخذ الأمور الشرعية واستفتائهم دون تقديسهم والشرك بهم.

والخلاصة نجحت الدولة السعودية في إحداث تغييرات اجتماعية كبيرة في حياة شبه الجزيرة العربية حتى بعد انهيار الدولة. فقد أقامت مجتمعاً يرتكز على جانب ديني وجانب سياسي واستمرت وحدته الدينية حتى قيام الدولة الثانية والثالثة.

وأحدثت الدولة السعودية تغييرات اقتصادية في شبة الجزيرة العربية، إذ استطاعت توحيد كل البلاد المتفرقة التي تكونت منها بنظام مالي موحد، وأصبحت جميع المناطق التي تخضع للدولة تشترك في اقتصاد واحد يحمي المناطق التي قد تهددها الطبيعة وغارات الجراد، وبالتالي تسوء حال المنطقة.

وبامتداد أطراف الدولة واتساع موارد دخلها، راجت التجارة الداخلية فيها وازدهر اقتصادها وازدحمت أسواقها خصوصاً في الدرعية عاصمة الدولة؛ مما دلَ على الرخاء الاقتصادي. كما ساهمت الأموال التي وزعها محمد على الأعراب في التغيير الاقتصادي في الدولة السعودية حتى في دور انهيارها.

الدعوة السلفية والحركات الاصلاحية في العالم العربي :

أولا: الحركة المهدية في السودان:

تنسب الحركة المهدية إلى محمد أحمد المهدي الذي ولد في جزيرة لبب جنوب دنقلة في السودان،في عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، ودرس العلوم الدينية واشتهر بالورع والتقوى والزهد، وكثر أتباعه نادى بالعمل على تحرير العقيدة الاسلامية مما لحق بها من شوائب،وإعادة مجد الاسلام، والثورة من أجل أغراض دينية، وربما سعى مؤسسها إلى إقامة دولة سياسية إسلامية؛ وقد أعاد سبب ما لحق بالإسلام من ازدراء إلى الحكام العثمانيين الذين ازدروا أحكام الشريعة،وأجب المهدي الامتناع عن دفع أي ضريبة غير العشور والزكاة التي أوجبها القرآن الكريم،ثم دعا إلى شيوع الملكية.

وركز المهدي على زهد الدنيا والعمل للآخرة،والجهاد في سبيل الله. واعتقد أن الطريق إلى الله واضح جلي في الكتاب والسنة؛ وأن انقسام المسلمين إلى مذاهب أربعة أضعفهم، لذا دعا إلى إلغاء المذاهب الأربعة وازداد نفوذ المهدي بعد استيلائه على النيل الأبيض في سبتمبر١٨٨٢م، ثم تغلبه على حملة هكس في نوفمبر ١٨٨٢،وبايعه معظم زعماء السودان وقبائله. وقد قررت الحكومة البريطانية التدخل في شؤون السودان بعد النجاح الذي حققه المهدي.

ورغم دعوة المهدية إلى صلاح الدين الاسلامي،إلا أنها امتزجت بصوفية شديدة وتطرف صاحبها،وسعت إلى غرض سياسي، وهو استقلال السودان وتحريره من السيطرة العثمانية، وأزعج المهدي الذي تسمى بالخليفة السلطان عبد الحميد الثاني،الذي أصدر منشورا كذب فيه المهدي،وحذر المسلمين من حركته. وظلت الدولة المهدية قائمة في السودان حتى أسقطتها بريطانيا؛ وبدأ الحكم الثنائي الانجليزي المصري للسودان عام ١٨٩٩م .

حركة الاصلاح السلفي في غرب أفريقيا:

استطاع أحد الحجاج اسمه عثمان دانفوديو،من قبيلة الفولا من الرعاة في السودان، الذي اعتنق مبادئ الدعوة السلفية أثناء حجه،أن يقنع قبيلته بسلامة مبادئ الدعوة. وحارب القبائل الوثنية في على مجرى نهر النيجر،حتى استطاع عام ١٨٠٤م إقامة مملكة سوكوتو في السودان، واستمرت حوالي قرن من الزمان حتى قضى عليها الاستعمار الأوروبي،وتعتبر هذه الدولة قد مهدت الطريق للحركة المهدية بعد أن نجحت في تحويل كثير من القبائل الوثنية إلى الاسلام.

ثالثا: الحركة السنوسية والمغرب العربي :

تأثرت بالحركة السلفية،وان اختلفت معها في الوسيلة، دعا إليها السيد محمد بن علي السنوسي المولود في الجزائر عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م،وينتسب إلى قبيلة سنوس إحدى قبائل تلمسان الجزائر،تعلم في بلدته ورحل إلى فاس(١٨٢٢-١٨٢٩م) حيث حصل على إجازته،ودرس بالجامع الكبير بفاس،زار بلدان المغرب العربي ومصر،ثم الحجاز وعاش في مكة منذ عام ١٨٣٠م، ثم رحل إلى صبيا بعسير،ثم عاد إلى مكة حيث بدأ دعوته(١٢٥٣-١٢٧٦هـ/١٨٣٧-١٨٥٩م).

دعت الحركة السنوسية إلى معرفة الدين الصحيح، والابتعاد عن الرذيلة، تأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرجوع إلى الكتاب والسنة، وتبني قوتها الروحية على تنظيم الزوايا للتعليم والتعلم، وغضب علماء مكة عليه لقوله

بأن الاجتهاد لم ينقطع،والاجتهاد عند السنوسية مطلق، ضمن قواعد حددها. أنشأ زاوية في مكة. واتصل السنوسي بأبناء السيد ابن ادريس الفاسي في صبيا حيث تمكنت من أهلها مبادئ الدعوة السلفية حينما كانت من أملاك الدولة السعودية الأولى، مما أخاف السلطات العثمانية والأشراف في الحجاز من السنوسي. وانتقل من مكة إلى برقة عام ١٨٤٠م، ومنها إلى طرابلس عام ١٨٤٢م، فنزل البيضاء وبنى بها زاوية هي الأولى في برقة.

تأثر السنوسي خلال إقامته في مكة بالدعوة السلفية النجدية، ودرس تجربتها وكيف واجتهتا الدولة العثمانية عن طريق محمد علي باشا والي مصر. لذلك اختار لدعوته الابتعاد عن السياسة، وجعل دعوته قائمة على المحبة والإقناع، وأقام زواياه لتكون مراكز للتربية، وإيقاظ العاطفة الدينية السليمة.

وبهذا الطريق السلمي استطاعت دعوته تحقيق أهدافها وتوسيع نفوذها،ولقيت تأييد الدولة العثمانية، لدرجة أن قدم لها السلطان عبد المجيد عام ١٨٥٦م امتيازات خاصة باعتبار زواياها حرما آمنا، بعكس ما حدث مع الدعوة السلفية النجدية. وكان القران القرآن الكريم والسنة النبوية هما الأصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما،دون الاجماع والقياس المتأخرين، واعتبر السنوسي أن باب الاجتهاد لم يقفل ومفتوح.

حركة الاصلاح الديني والاجتماعي في مصر:

تزعمها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده،وواصلها من بعدهما محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار. وعملت هذه الحركة على الرجوع بالإسلام إلى أصوله الأولى في الجانب الديني منها. ودعا الشيخ محمد عبده إلى التحرر الفكري،والرجوع بالإسلام إلى منابعه الأولى، مؤكدا أن هذا ما قامت عليه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. أما رشيد رضا فقد دعا لنفس مبادئ الدعوة السلفية النجدية، بعد أن درسها ودافع عنها.عن صاحبها، وأقنع علماء مصر بما فيهم شيخ الأزهر بأن الدعوة السلفية النجدية لم تخرج عن طريق أهل السنة والجماعة.

وخلاصة الأمر ان الحركات الاصلاحية التي قامت في العالم العربي، تأثرت بالدعوة السلفية التي عملت الدولة السعودية الأولى على نشرها وتأييدها،لكن الحركات الاصلاحية التي قامت بعد سقوط الدولة السعودية الأولى اختلفت عن الدعوة السلفية في وسائل نشر مبادئها،وساعدتها تغير الظروف مثل ظهور بعض وسائل الاعلام، مثل الصحافة، وكذلك انتشار التعليم؛ على الانتشار، خصوصا بعد خضوع أجزاء من الوطن العربي إلى الاستعمار الأوروبي، لدرجة أن الدولة العثمانية التي قاومت الحركة السلفية النجدية،مدت يدها لمعونة حركات الاصلاح التي جاءت بعدها،كما حدث مع السنوسية،واحتضنت أيضا حركة الجامعة الاسلامية، وذلك تبعا لاختلاف الظروف في الدولة العثمانية ومصلحتها الخاصة في ضوء علاقاتها الخارجية.

==========

المحاضرة السادسة

التيارات الفكرية ويقظة الوعي القومي إبان الحكم العثماني(شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام)

:التيار الفكري في شبه الجزيرة العربية

الدعوة السلفية والتجديد في الحياة العقلية والأدبية :

أيقظت الدعوة السلفية الحياة العقلية في شبه الجزيرة العربية،فالدعوة القوية إلى الاسلام الخالص كما جاء به النبي عليه السلام، وتطهير تعاليمه من البدع والخرافات التي أصابته؛ نتيجة للجهل والاختلاط بغير العرب،مما ساهم في ايقاظ الروح العربية الاسلامية، ورسمت صورة لمثل عليا جاهرت بها بالسيف والقلم واللسان، وقد قامت الدولة السعودية بنشرها، وقامت تلك الدعوة على جدل بين فريقين من العلماء: علماء التقليد الذين نظروا إلى علماء الدعوة

السلفية، أهل التجديد، على أنهم خارجون على القانون، وأن في دعوتهم كفر وإلحاد، وقد أيدهم في ذلك كثير من الحكام، وأثر هذا الجدل على الحياة العقلية، إذ سعى كل من الفريقين لدراسة النصوص القرآنية والتفاسير والحديث والفقه، وذلك للتدليل على صحة آرائه،وعادت الحياة إلى كتب ورسائل ابن تيمية وابن القيم، ولا شك أن العالم استفاد من هذه الحركة العقلية الجديدة، واستمر تيارها حتى وقتنا الحاضر؛ ونجم عن هذه الحركة العقلية وقيام حرب الدعاية ضد الدعوة السلفية؛ تأليف الكتب والرسائل في تشويه صورة الاصلاح الديني الذي تتبناه، وقد قوبلت هذه الكتب والرسائل بردود كثيرة من علماء نجد والعراق والشام ومصر والهند. فكان لهذه الحركة وما نتج عنها قيمة فكرية في عصر النهضة، زعزعت الناس عن المألوف من الخرافات والبدع،ووجهت العقول إلى منابع الاسلام ألصحيح.

وقامت الدعوة بإيقاظ الحياة العقلية من خلال تشجيع حكام الدولة السعودية الأولى للعلماء وطلاب العلم، حتى أصبحت الدرعية جامعة للتربية الدينية والعلمية، إلى جانب الاستعداد للحرب.

وامتدت هذه الحركة العقلية واليقظة العلمية خارج نجد إلى اليمن؛ فنهض فريق من علمائها للدفاع عن مذهبهم الزيدي، وفريق آخر أعجب بما تنادي إليه الدعوة السلفية، وبدأ في الدفاع عنها؛ فأيقظ ذلك كله الحياة العقلية في اليمن، وهكذا ساهمت الدولة السعودية الأولى من خلال نشرها لمبادئ الدعوة السلفية في بعث الحياة العقلية من سباتها، فجددت أسلوبها وقومت عبارتها وخصبت فكرها.

أما عن الحياة الأدبية وخاصة في إقليم نجد، الذي كان في الجاهلية من أهم مصادر الآداب العربية، والتي ضاعت حتى أواخر القرن ١٨م؛ بسبب غياب الرعاية عن اقليم نجد. ولما جاءت الدولة السعودية وأثناء توسعها ظهر حول أمرائها المجاهدين مجموعة من الشعراء، الذين كتبوا الشعر افتخارا بانتصارات الدولة، وليعذروها عند الهزيمة،وعادوا بالشعر إلى أسلوبه القديم الفصيح دون تكلف.

وكانت النهضة الأدبية في مجال الشعر أوضح منها في مجال النثر، لأن الكتابة النثرية لم تخرج إلى مجال الفنون الأدبية، وإنما انصبت على كتابة الرسائل والكتب في الرد على المعارضين للدعوة السلفية، فكانت دينية في جوهرها، معظمها مقتبس من الكتاب والسنة وأقوال السلف، وكتب الشيخ وأبنائه من بعده أصدق دليل على ذلك.

أما الشعر فقد كانت أغراضه التي نهض فيها هي: المدح والرثاء والفخر والاعتزاز بمبادئ الدعوة السلفية، ولم تقتصر هذه النهضة على نجد،بل شملت شعراء شبه الجزيرة العربية، ومن النماذج على هذه النهضة القصيدة التي قالها العلامة اليمني محمد بن اسماعيل الصنعاني ، يمدح فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لقيامه بالدعوة إلى التوحيد، وإقامة شرائع الاسلام فقال :

سلامي على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

ومنها قوله :

قفي واسألي عن عالم حل سوحها به يهتدي من ضل عن منهج الرشد

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي

أنظر: (ص١١٦-١١٨ من الكتاب المقرر)

وكذلك مرثية العلامة اليمني محمد بن علي الشوكاني بوفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب(انظر ص ١١٨-١١٩). ويدل هذا على تمكن الدعوة السلفية وانتشار النفوذ السعودي على أجزاء من اليمن.

التيار الفكري في بلاد الشام:

تمهيد :

من الآثار البارزة التي تركها الحكم المصري في بلاد الشام،أنه فتح الباب للجمعيات التبشيرية الأوروبية، خصوصا من فرنسا وأمريكا . وأصبح عام ١٨٤٣م ، عاما تاريخيا، ففيه عاد اليسوعيون، وتوسعت الإرسالية الأمريكية بمقدم أفواج جديدة. وفيه بدأت كذلك المنافسة بين الكاثوليك والبروتستنتيين . وسبق ذلك أحداث هامة ساهمت في يقظة الوعي القومي بين السكان، ففي عام ١٨٣٤م عاد الآباء العازاريين إلى فتح كلية عنتورة للذكور، ونقل مطبعة الإرسالية من مالطة إلى بيروت، وفتح مدرسة للبنات في بيروت . كما قام ابراهيم باشا بتطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي.

وأخذ التعليم ينتشر منذ ذلك الوقت ويتقدم بخطوات واسعة، وسعت ثلاثة عناصر لذلك: الإدارة المصرية، والبعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، ورجال الدين المحليون. وكان المبشرون يفتحون المدارس في جهات مختلفة من الشام،وكان أول ما أسسوه منها في بيروت، ووصل عدد المدارس التي فتحوها حتى عام ١٨٦٠م، ثلاثة وثلاثين مدرسة . وكانت ذروة أعمالهم التعليمية، تأسيس الكلية السورية البروتستنتية في بيروت عام ١٨٦٦م، والتي لعبت دورا كبيرا في حياة البلاد لاحقا. وكان من مزايا الأعمال التي قام بها المبشرون الأمريكيون؛ أنهم أعطوا اللغة العربية المقام الأول، وبذلوا الجهود لايجاد الكتب اللازمة، التي ساهمت في خلق الغليان الفكري، الذي نتج عنه الاهتزازات الأولى لحركة البعث العربي.

وسيطر على الحياة الفكرية في ذلك العهد شخصيتان كبيرتان هما : ناصيف اليازجي وبطرس البستاني :

ناصيف اليازجي(١٨٠٠- ١٨٧١م):

عربي لبناني مسيحي، من صفاته حب الاطلاع،وانطلق يبحث عن المعرفة في كل مكان،وأخذ يفكر في الأسلوب الذي يستطيع بواسطته إحياء الماضي في عالم الأدب العربي القديم. عمل اليازجي في ديوان الأمير بشير الشهابي حتى عام ١٨٤٠م، ونال شهرة واسعة كعلم من أعلام اللغة العربية، له فيها مؤلفات كثيرة. وكانت دعوته لإحياء الأدب القديم موجهة إلى جميع العرب من مسلمين ومسيحيين.

بطرس البستاني(١٨١٩- ١٨٨٣م):

عربي لبناني مسيحي، تعلم إلى جانب العربية لغات أخرى،وامتاز على أقرانه،بإحاطته الباهرة بالعلوم والآداب، استقر في بيروت، وتوثقت صلته بالإرسالية ألأمريكية. ولما ألف الأمريكان بدافع منه جمعية أدبية، كان يحاضر فيها. وأصدر عام ١٨٧٠م معجما للغة العربية في جزأين بعنوان(محيط المحيط). وقام بعد حوادث ١٨٦٠م التي أثارت البغضاء بين الطوائف في لبنان،بإصدار جريدة(نفير سورية)هدفها الدعوة إلى الوفاق بين الطوائف المختلفة، وحملت أفكاره بذور الفكرة القومية.كما أنشأ (المدرسة الوطنية) لنفس الهدف.وفي عام ١٨٧٠م أنشأ مجلة سياسية وأدبية سماها(الجنان) وشعارها : حب الوطن من الايمان.

جهود اليازجي والبستاني المشتركة:

تقدما إلى الإرسالية الأمريكية باقتراح تأسيس جمعية علمية،للعمل على نشر العلوم بين الكبار، والتي ظهرت في بيروت عام ١٨٤٧م باسم(جمعية الآداب والعلوم)، وكان من أعضائها إلى جانب اليازجي والبستاني كثير من الأمريكان، والكولونيل الانجليزي تشرشل الذي كان يقيم في بلاد الشام، وكانت أول جمعية من نوعها في بلاد الشام وحتى الوطن العربي، أنشأت مجلة لها باسم(المجلة السورية) كانت تنشر فيها المحاضرات التي تلقى في الجمعية. وقد تشكلت على غرارها جمعيات أخرى ساهمت في الحركة القومية العربية،وفي عام ١٨٥٧م ظهرت الجمعية(العلمية السورية) التي امتازت على سابقاتها بأمرين: الأول: أن جميع أعضائها كانوا من العرب. الثاني: أنها كانت

تضم المسلمين والدروز والنصارى. وكان تأسيسها أول مظاهر الوعي القومي المشترك، وكان أول صوت أرسلته حركة العرب القومية،كان في جلسة سرية عقدها بعض أعضاء الجمعية، حيث أنشد ابراهين بن ناصيف اليازجي قصائد تمجد الأمة العربية وتدعوها إلى التمرد والتحرر السياسي من ظلم العثمانيين، وقد قال في إحداها : (أنظر ص ١٢٧ من الكتاب المقرر)

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

==========

المحاضرة السابعةمكان السادسة

التيارات الفكرية ويقظة الوعي القومي إبان الحكم العثماني(مصر وبلدان المغرب العربي)

التيار الفكري في مصر:

بدأت اليقظة الفكرية في مصر منذ دخول الحملة الفرنسية مصر عام ١٧٩٨م ، وقد اتخذت الحملة من العلم سلاحا، وكان العلماء ضمن جنودها،وأنشأ العلماء المصاحبون للحملة مراكز للأبحاث المتعددة، ومصانع، ومعملا للورق، ومجمعا علميا لدراسة أحوال مصر؛ وذلك لتأكيد الوجود الفرنسي في مصر. وأدرك نابليون أن الدعاية هي السلاح الفعال لكسب قلوب المصريين؛ فأتى معه بمطبعة عربية، وأصدر صحيفتين فرنسيتين ونشرة باللغة العربية، وأقام مسرحا للتمثيل،وأقام علماء الحملة مكتبة وضعوا فيها المخطوطات التي جمعوها من مساجد مصر.وكل ذلك لإيهام المصريين أنهم أتوا إلى مصر لتحضيرها والنهوض بها.

وجاء بعد الحملة الفرنسية عصر محمد علي، وما صاحبه من الانفتاح الثقافي على الغرب وإدخال نظم التعليم الحديثة، فأنشأ مدرسة حربية، ومدارس أخرى للطب، والطب البيطري والصيدلة والهندسة، واستقدم أساتذة أجانب، وأرسل البعوث إلى أوروبا، وهكذا كان أول لقاء عملي بين المصريين والثقافة الغربية في العصر الحديث، وقد نتج عن هذا اللقاء الفكري أن عاد المبعوثون إلى بلادهم بعقلية جديدة .

وكان من أبرز مظاهر هذه النهضة الثقافية إنشاء مدرسة الألسن، التي اقترح رفاعة الطهطاوي إنشائها، وتولى إدارتها، وكانت هذه المدرسة تعنى بدراسة اللغات الأجنبية إلى جانب آداب اللغة العربية، واستطاع خريجوها ترجمة كثير من الكتب القيمة، وكذلك من مظاهر النهضة إنشاء المطبعة الأميرية عام ١٨٢٢م، وإصدار صحيفة(جرنال الخديوي) التي تحولت لاحقا إلى (الوقائع المصرية)، ومن عيوب النهضة في عصر محمد علي أنها كانت تدور حول الجيش، وتركز على الجوانب العلمية والمادية على حساب الجوانب النظرية والأدبية؛ ومن أبرز ثمار هذه الحركة الثقافية ظهور جماعة من المثقفين المصريين، الذين درسوا ثقافة الغرب وعلومه، وأصبحوا يمثلون لونا ثقافيا جديدا، إلى جانب اللون التقليدي الممثل في علماء الأزهر آنذاك، وكان إمام هؤلاء المثقفين ورائدهم: رفاعة الطهطاوي.

رفاعة الطهطاوي(١٨٠١-١٨٧٣م)

ولد عام ١٨٠١م في طهطا بصعيد مصر،وانتقل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر عام ١٨١٧م، حيث تتلمذ على يد العالم الثائر الشيخ حسن العطار، ويعتبر رفاعة مؤسس نهضة مصر الثقافية؛ إذ استطاع التأثير على مجرى التفكير المصري والثقافة المصرية تأثيرا عميقا في كل المجالات، وهو الذي بذر بذور الديمقراطية في أول كتاب أصدره عام ١٨٣٤م، وهو : (تخليص الابريز في تلخيص باريز)،وكذلك بذور الراديكالية والاشتراكية عام ١٨٦٩م في كتابه: (مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية)، وهو الذي بث الفكرة القومية المصرية، بعد أن كانت عارا.

وبشر رفاعة الطهطاوي في مصر بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة،وتشبع بآثار حركة الاستنارة. واستقى آراءه عن الأمة من (منتسكيو). ورغم وقوف رفاعة على نظريات الفكر السياسي الغربي، فإن تصوره للسلطة السياسية كان في قالب الفكر الاسلامي بوجه عام، رغم انبهاره بالمبادئ الدستورية الفرنسية، حتى أنه كان أول من عرف المصريين بحقوق الإنسان، وأخذ عن فلاسفة الاستنارة فكرة التسامح الديني وغير الديني، رغم ذلك كله بقيت أرائه في الدولة في مجموعها إسلامية، وكان رفاعة أول مواطن مصري يقدم لمواطنيه النظم السياسية الأوروبية، وأفكار الثورة الفرنسية المتصلة بها . أحب رفاعة وطنه، وتأثر بأمجاد مصر القديمة، وتصور الوطن على أساس مصري وليس عربي، رغم غموض فكره في هذا الجانب.

ولعب رفاعة الطهطاوي، دورا بارزا، في حياة الصحافة المصرية حين تقلد رئاسة تحرير الوقائع المصرية في يناير عام ١٨٤٢م، حيث جعل المادة العربية تشمل النصف الأيمن،والتركية النصف الأيسر، بعد أن كان العكس، وجعل المادة الأصلية تكتب بالعربية أولا ثم تترجم إلى اللغة التركي، وجعل أخبار مصر تتقدم كل الأخبار، وجعل من افتتاحية الوقائع مقالا تحليليا عميقا، في السياسة والاجتماع، بعد أن كانت لا تخرج عن مدح الوالي. وعمل رفاعة في مجال الصحافة رئيسا لتحرير مجلة (روضة المدارس)، واهتم آنذاك بشؤون المرأة وأخبارها. مات رفاعة عام ١٨٧٣م ،وترك من الأعمال العلمية والفكرية ستة عشر مجلدا، ما بين مؤلفة ومترجمة .

ومن المفكرين الذين أثروا الفكر السياسي المصري في القرن التاسع عشر، حسين المرصفي، في كتابه(الكلم الثمان) الذي نشر عام ١٨٦٩م،وهو عبارة عن دراسة لبعض الألفاظ التي طرحت على بساط البحث للمرة الأولى في تاريخ مصر، كالوطن والحرية والأمة والعدالة والظلم وغيرها .

التيار الفكري في المغرب العربي :

لم تبذل جهود كافية لإنعاش الحياة الفكرية في بلدان المغرب، ولم تبذل الدولة العثمانية ولا السعدية في المغرب الأقصى جهودا تذكر لتطوير التعليم، لذلك غلب عليها الطابع التقليدي. وتفاوتت الحياة الفكرية في بلدان المغرب العربي من بلد لآخر، نتيجة لعوامل خارجية ومحلية خاصة بكل بلد. ويمكن دراسة هذا الأمر على النحو التالي

أولا: المغرب الأقصى :

كانت الحياة الفكرية في المغرب الأقصى، أفضل حالا من غيرها، فقد حدث نتيجة لعملية الغزو الأسباني لتونس، أن نزح عدد كبير من أعلام الفكر في تونس، إلى المغرب الأقصى، وكذلك من علماء الجزائر،بالإضافة إلى عدد من علماء السواحل المغربية التي تعرضت للغزو الأسباني، إلى فاس، التي تحولت إلى مركز ثقافي مزدهر، انبعثت منه أشعة التجديد الفكري، القائم على الجهود الفردية. وبدأ الاهتمام بدراسة علم الهندسة، وكذلك حدث في مراكش، كما انبعثت دراسة الطب، وبدأت حركة التأليف تشهد نهضة جديدة، خاصة في مجال فلسفة المذهب المالكي.

كما شملت الحركة الفكرية في المغرب الأقصى كتابة التراجم، وبخاصة منها المتعلقة بحياة الصالحين والمجاهدين،لأخذ العبرة منها في مواجهة الغزو الأسباني. كما أخذت الحركة الفكرية في بلاد المغرب بأسلوب الترجمة بقصد الاستفادة من معطيات النهضة الأوروبية، وقد شجع المنصور السعدي وابنه زيدان هذا الاتجاه. ولعبت الحركة الفكرية دورها في الدعوة إلى الجهاد لتحرير البلاد، وانبعث خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، أدب المقاومة الوطنية، وظهرت المؤلفات العديدة التي تحض على الجهاد، وكان لأصحاب التيار السلفي، دور مهم في المغرب، منهم محمد بن مكنون، الذي اضطهد وسجن من أجل دعوته، وكان أسبق من الشيخ محمد عبده في الدعوة إلى إصلاح أحوال المسلمين .

ثانيا : تونس :

أدت هجرة علماء تونس إلى المغرب الأقصى إلى تراجع الحركة الفكرية،واضطر الحكام العثمانيين إلى استجلاب علماء منهم لنشر الثقافة والعلوم. ولما عاد العلماء التونسيون إلى بلادهم،واستقروا في مراكزهم العلمية، وأعانهم على ذلك بعض حكام تونس. وتميزت الحركة الفكرية في مطلع العصر الحديث وحتى القرن التاسع عشر، أن الثقافة التونسية امتزجت بتيارات عدة هي : التيار الأندلسي الذي أتى به المهاجرون الأندلسيون، التيار التركي العثماني، الذي كان من نتائجه نشر المذهب الحنفي، وتيار ثالث هو التيار المشرقي الذي جاء به العلماء والحجاج المغاربة، الذين درسوا في المراكز الثقافية،في الحرمين والقاهرة والقدس ودمشق، هذا إلى جانب تأثر الحركة الفكرية في تونس بالتيار المغربي التصوفي، ورغم هذا المزيج فقد حافظت الثقافة التونسية على طابعها الأصيل.

وقد وجد في تونس عدد كبير من المراكز الثقافية،وعلى رأسها (جامع الزيتونة)،وكذلك ازدهرت القيروان حركة علمية مزدهرة،وأصبح فيها أكثر من خمسين مسجدا، يدرس فيها أشهر العلماء. وكانت السمة العامة للحركة الفكرية في تونس، هي السمة الدينية، التي كانت تدعو إلى التمسك بأمجاد الماضي، والاستعداد للحاضر والمستقبل، كما لعبت الزوايا الصوفية دورها في هذا التأثير الروحي.

ومنذ القرن التاسع عشر بدأت الحركة الفكرية التونسية في ابراز الروح الوطنية، وكان من رواد هذه النهضة ابن أبي الضياف في كتابه:(اتحاف أهل الزمان)، وخير الدين التونسي في كتابه :(أقوم المسالك). وأصبح وعي المثقفين قويا في تصديهم للاستعمار الذي اجتاح المغرب العربي بعامة، ونتج عن ذلك روح التضامن المغربي، التي بدأت بصورة واضحة خلال مرحلة الكفاح الوطني بين عامي(١٩٣٠- ١٩٦١م) .

ثالثا : الجزائر :

شهدت الحركة الفكرية الجزائرية الفيلسوف العقائدي محمد السنوسي، وغيره من الفقهاء، ورغم ذلك لم تصل الحركة الفكرية إلى ما وصلت إليه في تونس والمغرب من الازدهار، لكن هذا التيار بدأ ينشط بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وشارك في حركة الجهاد والحث عليه، وكان الأمير عبد القادر،قائد حركة النضال في مراحله الأولى، كان شاعرا وفقيها، بلغ مرتبة المصلحين الكبار من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي. وأدى هذا التيار دوره في إيقاظ الوعي الوطني، ولعب عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء دورا بارزا في إيقاظ الوعي الجزائري وروح النضال من أجل حريته، حتى حصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦١م.

رابعا: ليبيا:

كان للرباط دوره في الحياة الثقافية في ليبيا،وكذلك الزوايا الصوفية، فأخرجتن بعض العلماء الذين يعتد بهم مصطفى خوجه وغيره. وساهم التيار الفكري في مقاومة الهجمات الاستعمارية على ليبيا، بل وبلدان المغرب العربي، منذ الحملات الأسبانية وحتى الاستعمار الايطالي.

وخلاصة الأمر كان التيار الفكري المغربي على نفس مستوى التيار الفكري في المشرق العربي، وإن كان تيارا منفتحا على المنابع الثقافية الأخرى من أندلسية وعثمانية ومشرقية، وساهم بدوره في إذكاء الروح الوطنية والقومية في التاريخ الحديث.

==========

المحاضرة الثامنةوحدت مكان السابعة

المحاضرة الثامنة

ازدياد نفوذ الحكام المحليين حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي

تمهيد:

فقد العثمانيون المبادرة العسكرية في أوروبا على أثر معاهدة كارلوفيتز عام ١٦٩٩م، وحلت روسيا محل النمسا في تهديد العثمانيين خلال القرن الثامن عشر الميلادي؛ وذلك لرغبتها في الوصول إلى مياه البحر الأسود، وتمكنت روسيا من هزيمة الدولة العثمانية في الحرب التي دارت بينهما بين عامي (١٧٦٨- ١٧٧٤م)، وبموجب معاهدة كتشك قينارجه التي أنهت الحرب، استطاعت روسيا أن تصل إلى شواطئ البحر الأسود، وأن تحصل على حرية الملاحة التجارية في المياه العثمانية ، وعبر البسفور والدردنيل. وتوسعت روسيا أكثر على حساب الدولة العثمانية عندما تجددت الحرب بينهما بين عامي(١٧٨٧-١٧٩٢ م). كما شهد القرن الثامن عشر الميلادي تجدد القتال بين الدولتين الفارسية والعثمانية،خاصة في عهد نادر شاه الذي استقل بحكم بلاد فارس عام ١٧٣٦م.

ولما منيت الدولة العثمانية بعدة هزائم، حاولت القيام ببعض الاصلاحات، خاصة في المجال العسكري، بعدما أصاب رجال الانكشارية الضعف،وتسلطت عليهم الفوضى، لكن محاولات السلطان سليم الثالث(١٧٨٩-١٨٠٧م) باءت بالفشل وعزل على يد الإنكشارية. وكانت السلطة العليا في استانبول،حتى نهاية القرن ١٨ م، محل نزاع بين كل من: الصدر الأعظم والكزلار آغا(وهو الشخص المسؤول عن أمور الحريم بالقصر)، وتأثرت الإدارة في الولايات بهذا الصراع؛ إضافة إلى ضعف الدولة تجاه الدول الأجنبية، وأثر ذلك كله على هيبة السلطة المركزية في الولايات؛ مما أتاح المجال لظهور حكام محليين في كثير من الولايات العربية، وغيرها. واضطرت الدولة لقبول هؤلاء الحكام ما داموا يدينون بالطاعة لها، ويحافظون على الأمن في مناطقهم، إلى جانب إدراك الدولة في ذلك الوقت لصعوبة القضاء عليهم. ومما يلاحظ على جميع الحكام المحليين أنهم رغم نفوذهم، لم يعلن أي منهم الاستقلال عن الدولة العثمانية، فقد نظروا إلى السلطان باعتباره زعيم المسلمين، وأن الخروج عليه سوف يثير الرأي العام الاسلامي ضدهم.

أولا: الحكام المحليون في بلاد الشام:

١- آل العظم:

من أشهر الأسر الحاكمة في بلاد الشام ي، وقيل أنها أسرة تركية، وقيل أنها أسرة محلية، من منطقة معرة النعمان في حماة، وقد توصلت إلى حكم هذه المنطقة في الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، وكان إسماعيل باشا العظم، أول ولاة آل العظم في بلاد الشام، حكم المعرة أولا، وانتقل منها إلى حماة وحمص، وهما سنجقان من ولاية الشام، ثم جاءته رتبة الباشوية أو الوزارة، وولي طرابلس، ثم انتقل إلى ولاية دمشق عام ١١٣٧هـ (١٧٢٤-١٧٢٥م)، فكان أول باشاواتها من آل العظم، حكمها ست سنوات. واستطاع آل العظم، بما توفر لديهم من ثروة مادية، شراء الدعم لهم من استانبول، حتى أصبح لهم وكيل فيها يرعى مصالحهم. واعتمد اسماعيل باشا على قواته من المغاربة، وأرضى الرأي العام الدمشقي، وكذلك الرأي العام الديني، وأمن سلامة الحج من البدو، واتبع سياسة متوازنة بين القوى في الولاية لإيجاد الاستقرار، كما وازن بين قبائل البدو بعضها مع بعض.

وبلغ نفوذ آل العظم درجة كبيرة من القوة بين عامي(١٧٢٥-١٧٣٠ م)؛ حيث أصبح منهم حكام ولايات:الشام وطرابلس وصيدا،وامتد حكم هذه الأسرة على المنطقة الواقعة بين حلب والعريش. ولما ثار الانكشارية عام ١٧٣٠م، بسبب خسارة الدولة للحرب على الجبهة الفارسية،ونتج عن الثورة مقتل الصدر الأعظم وبعض رجاله، مما جعل وكيل آل العظم يفقد نفوذه، وقد تزامن ذلك مع استياء الادارة في استانبول من هجوم بدو بنو حرب في الحجاز على قافلة الحج التي كان أميرها اسماعيل باشا العظم. ورغبت الدولة في مصادرة أموال العظم لتمويل حربها مع فارس، فعزلت الولاة من آل العظم وصادرت أموالهم. ولما قضي على الثورة في العام التالي ١٧٣١م، استعاد آل العظم نفوذهم تدريجيا، ونجح سليمان باشا العظم في الحصول على ولاية الشام عام ١٨٣٤م.

وبلغ نفوذ آل العظم ذروته في ولاية الشام بين عامي(١٧٤١ -١٧٥٧م) خلال ولاية سليمان باشا العظم الثانية (١٧٤١-١٧٤٣ م)، وولاية ابن أخيه أسعد باشا العظم (١٧٤٣-١٧٥٧م)؛ إذ بدا خلالها كما لو أن حكم الأسرة أصبح وراثيا في بلاد الشام. وازدهرت الحياة الاقتصادية في عهد أسعد باشا؛ وذلك بسبب ازدياد النشاط التجاري بين التجار الفرنسيين المتمركزين على ساحل بلاد الشام، وبين التجار الدمشقيين، وازدياد الطلب على المنسوجات الدمشقية، هذا إلى جانب تأمين قافلة الحج طوال عهده، وتشجيعه الحجاج على الذهاب إلى الحجاز بأعداد كبيرة، وازداد عدد التجار المرافقين لقافلة الحج.

واشتهر من ولاة آل العظم في فترة أسعد باشا؛إخوته الذين تولوا الحكم في صيدا وطرابلس. لكن الأمور لم تدم لآل العظم، فلما اعتلى العرش السلطان عثمان الثالث عام ١٧٥٤م، وازدادت سلطة الكزلار آغا أحمد أبو قوف، الذي كان عدوا شخصيا لأسعد باشا، فأخذ يكيد له، واستغل حادثة هجوم بدو بني صخر على قافلة الحج عام ١٨٥٧م، واقنع السلطان بعزل أسعد باشا ومصادرة ثروته، فكان ذلك ضربة قوية لآل العظم، لم يستطع أحد من الأسرة بعدها أن يستعيد ما كان لها من نفوذ، بسبب ضعف الأسرة من ناحية، وانهيار سلطة ولاة الشام عامة، وظهور حكام محليين آخرين من أصحاب القوة والنفوذ.

٢- سيطرة ظاهر العمر:

أثناء سيطرة آل العظم على بلاد الشام، تصارع على السلطة في بلاد الشام الجنوبية، الأمراء الشهابيين، والمتاولة، وظاهر العمر، وولاة الشام وصيدا، واستطاع ظاهر العمر أن يصل إلى سلطة شبه مطلقة في فلسطين. واستفاد في تقوية مركزة من سرعة تبدل ولاة الشام، ومن فشل حملة سليمان باشا العظم ضده عام ١٧٤٢م، وسعى لتقوية نفسه عسكريا،واتصل بالقنصل الفرنسي للتوسط لدى السلطات العثمانية لمنع والي الشام من مهاجمته، وازداد نفوذه خلال ولاية أسعد باشا الذي تعايش معه سلميا لانشغاله بالصراع مع أمير جبل لبنان.

واعترف الفرنسيون بظاهر العمر وتعاملوا معه، وتغاضت استانبول عنه، وانفرد ظاهر العمر بتحديد سعر القطن للتجار لفرنسيين، ولم ينجح تدخل السفير الفرنسي في استانبول في تغيير سياسته، لأنه عمل على تحسين علاقته بالسلطات العثمانية، من خلال التزامه بدفع الضرائب، ومحافظته على القانون في منطقته . مما اضطر الفرنسيون لتوقيع اتفاق تجاري معه عام ١٧٥٣م، لتنظيم التجارة بينهما؛ فازداد نفوذ ظاهر العمر. واستمر نفوذه في ازدياد، حتى تمكن بمساعدة قوات علي بيك وناصف النصار، من احتلال دمشق في يونيو ١٧٧١م.

ساند ظاهر العمر علي بيك ضد أبي الذهب في مصر، وعاد علي بيك إلى مصر تدعمه بعض قوات ظاهر العمر، لكن تصادمه مع أبي الذهب ثم وفاته عام ١٧٧٣م، أحرج موقف ظاهر العمر سياسيا وعسكريا، خاصة بعدما عمل أبو الذهب بالتعاون مع العثمانيين لمحاصرة ظاهر العمر في عكا.

وكان الوقت لصالح الدولة العثمانية، مع ضعف ظاهر العمر، خصوصا بعد تآمر ابنه علي مع أبي الذهب ضده، الذي خرج بجيش من مصر في مارس ١٧٧٥م لقتال ظاهر،وخضعت له غزة والرملة ويافا وعكا وصيدا، وهرب ظاهر. لكن وفاة أبي الذهب خلصته من هذا الخطر. وكانت الدولة قد أنهت حربها مع روسيا وأرسلت حملة، استسلمت لها حيفا وحاصرت عكا مركز ظاهر ، وقتله المغاربه قبل هربه منها في أغسطس ١٧٧٥م، ونشأ عن ذلك فراغ سياسي في بلاد الشام الجنوبية، لكن سرعان ما ظهر أحمد باشا الجزار وملأ هذا الفراغ.

تابع الحكام المحليون في بلاد الشام :

٣- حكم أحمد باشا الجزار(١٧٧٥- ١٨٠١م):

هو مملوك بدأ عمله في استانبول، ثم في مصر، ونال رتبة البكوية، ولقب بالجزار لشدة بطشه ببدو اقليم البحيرة، ثم انتقل مع بعض مماليكه إلى بلاد الشام، وكلف من سلطات دمشق بحماية بيروت، لكنه تمرد على حاكمها يوسف الشهابي، وعينه السلطان بعد القضاء على ظاهر العمر محافظا لعكا. وفي عام ١٧٧٦م عينه السلطان واليا على صيدا، ومنحه بهذه المناسبة رتبة وزير، واعتمد على مماليكه في تدعيم سلطته. وبتعيينه واليا على صيدا انتقل زمام المبادرة السياسية في بلاد الشام الجنوبية، من ولاة دمشق إليه، وأصبحت دمشق تدور في فلك قوته، وأخذ يسعى للحصول على ولاية دمشق، وتمكن من إخضاع أمراء جبل لبنان والمتاوله عام ١٧٨١م، واتخذ من عكا مركزا له، ولم يقم في صيدا مركز ولايته.

ولما حاول السلطان عزله، تحدى أوامره، وطرد الباشا الذي عين مكانه، وتغاضى عنه السلطان لصعوبة عزله آنذاك، بل إنه عين واليا على الشام في فبراير عام ١٧٨٥م، لكن الدمشقيين جهروا بالشكوى ضده لظلمه، فعزله السلطان، وتولى ولاية الشام لاحقا مرتين، ولم يجرؤ أحد على الشكوى ضده. واستمر الجزار سيد الموقف في بلاد الشام، حتى مجيء حملة بونابرت إلى بلاد الشام عام ١٧٩٩م، ورغم فشل بونابرت في حملته على عكا، إلا أن مرحلة جديد قد بدأت في تاريخ مصر وبلاد الشام، تميزت بالتدخل الغربي في شؤونهما.

٤- الأشراف في حلب :

مارس الأشراف في حلب خلال القرن الثامن عشر الميلادي، سلطة سياسية غير مسبوقة في الدولة العثمانية؛ لأنهم كانوا الطائفة الوحيدة التي استطاع السكان المحليون من خلالها التعبير عن قوتهم، ومقامة ظلم الإنكشارية. ووقف أشراف حلب يدافعون عن مصالح أهلها، وقد لعب نقيب أشراف حلب، منذ أوائل الستينات، من القرن ١٨ م، دورا سياسيا هاما، وبلغ من تنظيم الأشراف وقوتهم أواخر ذلك القرن، أن الدولة أرسلتهم إلى مصر لمقاومة حملة نابليون بونابرت. وتمكن الانكشارية من القضاء على معظم الأشراف في حلب. وكان ظهورهم بهذه القوة جزءا من ظاهرة النفوذ المحلي في الولايات العربية.

٥- نفوذ البدو:

عانى الحكم العثماني منذ دخوله إلى البلاد العربية من تمردات البدو، خصوصا القبائل التي كانت تقطن على الطريق السلطاني الي يربط دمشق بالحجاز. واستعملت سياسة القوة أحيانا واللين أحيانا أخرى لتسوية أمورها مع قبائل البدو في بلاد الشام، وارتبط موقف السلطات العثمانية، بقوة أو ضعف الإدارة في استانبول. وطالما سيطرت بعض القبائل البدوية التركمانية والعربية، على مناطق شاسعة، مثل بدو بني خالد في الأحساء ، وكذلك قبيلة العنزة في نجد، وغيرها من القبائل في بادية الشام.

الأسر الحاكمة والمماليك في العراق :

أدت الظروف الخاصة بالعراق كمنطقة حدودية مع بلاد فارس، وبسبب تسلط الانكشارية في بغداد؛ إلى قيام حكم شبه متوارث في : بغداد والموصل والبصرة، مثل آل الجليلي في الموصل، وكذلك المماليك في بغداد والبصرة. ولم تستطع الدولة العثمانية القضاء عليهم أو تبديلهم.

وكان آخر الولاة المماليك في العراق، وأطولهم مدة في الحكم، داود باشا(١٨١٦-١٨٣١م)، وقد تميز حكمه بحادثين بارزين هما: استئناف القتال مع فارس، وإلغاء الإنكشارية، كما ازداد في عهده الاتصال مع أوروبا، ورسخ النفوذ الأوروبي التجاري في العراق، خصوصا البريطاني والفرنسي. كما استدعى داود باشا خبراء فرنسيين لتدريب الجيش، وفنيين أوروبيين لتحسين الصناعة والزراعة، لكن السلطان محمود الثاني الذي حاول إصلاح الدولة، وجه جهوده للقضاء على مراكز القوى في البلاد العربية، وأمر والي حلب بقيادة حملة على بغداد ومحاصرتها، وتمكن من

دخولها في سبتمبر ١٨٣١م، وقتل المماليك، وأرسل داود باشا إلى استانبول، حيث تولى بعض المناصب، وتوفي بالمدينة المنورة عام ١٨٥١م. وبذلك انتهى حكم المماليك في بغداد.

وقد أعطى حكم المماليك لبغداد دورها السياسي والإداري، وفرض هيبة والي بغداد على القبائل البدوية والكردية،وأخضع لبغداد: البصرة وشهر زور وكردستان، وسلمت العراق من الوقوع في أيدي الدول المتعاقبة على بلاد فارس، وحمى ذلك بلاد الشام. وكذلك تم القضاء على آل الجليلي في الموصل عام ١٨٣٤م. وجميعا كانوا من مظاهر ازدياد النفوذ المحلي في الولايات العربية خلال الحكم العثماني.

ثالثا: ازدياد نفوذ الإمارات العربية في الجزيرة العربية والخليج العربي:

ازداد عدد الامارات المستقلة في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ،خاصة في المناطق الشرقية؛ فالزيديون في اليمن وبنو خالد في الأحساء، والعتوب الذين منهم آل الصباح في الكويت،وآل خليفة في قطر،وكذلك القواسم في ساحل عمان، واليعاربة وآل بوسعيد في منطقة عمان، والأشراف في الحجاز. ثم محاولة توحيد كل هذه الكيانات السياسية في كيان واحد على يد آل سعود أتباع الدعوة السلفية، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير ، وكادت الوحدة تنجح لولا مقاومة الدولة العثمانية، عن طريق محمد علي باشا والي مصر.

رابعا: المماليك في مصر:

تجلى ازدياد النفوذ المحلي في مصر خلال القرن الثامن عشر، بسلطة الأمراء المماليك، وقد استمر دورهم بعد الفتح العثماني، ولما تمت السيطرة الفعلية للبيوت المملوكية، انقسمت هذه البيوت بدورها إلى طوائف متنافرة، وكان من نتائج ذلك ظهور علي بيك، الذي استغل ضعف السلطة العثمانية، فاحتلت قواته دمشق وجنوب الشام والحجاز، حتى قضى عليه مملوكه محمد بيك أبو الذهب.

وتغلب علي بيك حينما آلت إليه الأمور، على جميع أعدائه في الفترة(١٧٦٧-١٧٦٨م)، بما فيهم الشيخ همام شيخ قبيلة هوارة في الصعيد، وأقره والي مصر محمد راقم باشا في مشيخة البلد واعترف بنفوذه، مما كرس سلطته، حتى أصبح الحاكم الفعلي لمصر عام ١٧٧٠م، ومنع ورود الولاة العثمانيين إليها، وتم الدعاء له في خطبة الجمعة بعد السلطان العثماني. وأصدر عملة نقدية جديدة، ذكر عليها اسمه إلى جانب اسم السلطان. ورغم النفوذ السطحي للسلطان في مصر، فإن علي بيك لم يعلن انفصاله عنه، واستمر يسعى لتوسيع حدود سلطته في بلاد الشام والجزيرة العربية.

لكن النزاع نشأ بين علي بيك ومملوكه محمد أو الذهب، الذي فضل الارتباط مباشرة بالسلطان على التبعية لمملوك مثله في مصر، وتصادم الفريقان في القاهرة عام ١٧٧٢م، وكانت الغلبة لمحمد بيك أبي الذهب، وهرب علي بيك إلى صديقه ظاهر العمر في عكا، لكنه رغم مساعدة ظاهر العمر انهزم أمام أبو الذهب في مايو ١٧٧٣م، وانفرد ابو الذهب بالسلطة الفعلية في مصر، لكن المنية عاجلته، وانتهى الأمر بزعامة مملوكية ثنائية بين ابراهيم بك ومراد بيك،وظلت سلطتهما دون منازع، حتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، وكان ذلك بداية النهاية لنفوذ المماليك في مصر.

خامسا: الزعامات المحلية في المغرب العربي:

شهدت بلاد المغرب: الجزائر وتونس وطرابلس، في القرن الثامن عشر، أسرا حاكمه أشبه بالملكيات،جمعت السلطات في يدها،ففي الجزائر مثلا، انتزع الدايات(١٦٧١-١٨٣٠م) صلاحيات الباشا العثماني ولقبه، وتمتعت الجزائر بسلطة قوية في الخارج، وهزمت اسبانيا عام ١٧٧٥م،وطردتها من وهران عام ١٧٩٢م، ثم تعرضت لفترة اضطراب وفوضى انتهت بالاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠م.

أما تونس التي آل حكمها عام ١٧٠٥م، إلى حسين بن علي، آغا السباهية الأتراك، مؤسس الأسرة الحسينية التي ظلت تحكم تونس حتى عام ١٩٥٧م. وتمكن حسين من انهاء تبعية تونس للجزائر وطرد القوات الجزائرية منها، وكسب الدعم المحلي، وقام ببعض الاصلاحات التي حسنت صورته كحاكم مسلم، وأرجع الوالي العثماني الذي عينه السلطان على تونس. وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين في شؤونهم عن الدولة العثمانية، فعقدوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الرجوع إلى السلطان، مع اعترافهم بالسلطة الاسمية للسلطان.

أما طرابلس التي شهدت منذ عام ١٧١١م، بداية حكم الأسرة القرمانلية، بولاية أحمد القرمانلي، وظل أفراد أسرته يتولون الحكم حتى عام ١٨٣٥م، حينما أرسلت الدولة العثمانية حملة بحرية احتلت طرابلس وأنهت حكم هذه الأسرة، وأنهت الصراع الإنجليزي – الفرنسي على طرابلس.

ويعتبر بروز هذه الأسر الحاكمة في بلدان المغرب العربي جزءا من ظاهرة ازدياد النفوذ المحلي في الولايات العربية، لكن لا بد من ملاحظة أن تجربة محمد علي باشا في مصر وخارجها،أبرز مثال على هذا النفوذ.

==========

المحاضرة الثامنة

التنافس الانجليزي- الفرنسي في المشرق العربي

الخليج العربي والبحر الأحمر

حلقة من حلقات الزحف الاستعماري على البلاد العربية خلال الحكم العثماني

تمهيد:

كان من مظاهر الزحف الاستعماري على البلاد العربية خلال الحكم العثماني، التنافس الانجليزي- الفرنسي في المشرق العربي، الذي كان تحت السيادة العثمانية بغض النظر عن طبيعة هذه السيادة وتفاوتها من منطقة إلى أخرى . وكانت علاقة الدولة العثمانية بأوروبا قائمة على التحالف منذ عهد السلطان سليمان، خاصة مع فرنسا التي كانت تتنافس مع أسبانيا، وحصلت فرنسا بموجب اتفاقها مع السلطان سليمان عام ١٥٣٥م على بعض الامتيازات في الدولة العثمانية،وتبعته بريطانيا في هذا الأمر عام ١٥٨٣م، وظلت تلك الاتفاقات حجر الأساس في علاقات الدولة العثمانية بأوروبا، حتى مجيء حملة نابليون بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨م.

وكانت الدول الأوروبية تستغل الامتيازات التي حصلت عليها في كثير من الأحيان لتدعيم نفوذها في بعض البلاد العربية، خصوصا في مراحل ضعف الدولة العثمانية، وعلى أثر تدهور الادارة المركزية والمحلية؛ مما أتاح المجال للزحف الاستعماري على أطراف الوطن العربي، وجاء هذا الزحف كنتيجة لتطور الرأسمالية الأوروبية إلى الجانب الصناعي، مستغلة جانب الضعف الي عانت منه الدولة العثمانية في الدفاع عن حدودها أمام روسيا خاصة بعد عقد معاهدة كتشك قينارجة عام ١٧٧٤م، التى حصلت روسيا بموجبها على أجزاء من الدولة العثمانية، وكذلك على حقوق تجارية وبحرية، مما أتاح الفرصة لروسيا للتدخل في شؤون الدولة العثمانية، وساهم ذلك بعد معاهدة فينا عام ١٨١٥م، بتدخل انجلترا وفرنسا في الشؤون العثمانية، بحجة حماية الدولة العثمانية، والمحافظة على تكاملها السياسي، سواء من خطر روسيا، أو من خطر بعض الحركات الانفصالية من داخل الدولة العثمانية، خاصة حركة محمد علي في مصر والمشرق العربي. كان هذا الغطاء الذي تسترت به الأطماع الفرنسية – الانجليزية للاستيلاء على البلاد العربية، وكانت منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر من ميادين التنافس بينهما.

أولا: في منطقة الخليج العربي: (مناقشة ١١)

بدأ النفوذ الانجليزي التجاري بالنمو على حساب الهولنديين في الخليج العربي مع نهاية القرن السابع عشر، مع منافسة ضعيفة من جانب فرنسا. ولما وصل نفوذ الدولة السعودية الأولى إلى سواحل الخليج، وهدد الأراضي العثمانية، كان التنافس الانجليزي- الفرنسي قد وصل ذروته بتجدد الحرب بينهما بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٩٣م.

اتسمت علاقات فرنسا السياسية مع إمارات الخليج العربي بالتردد وعدم الثبات في القرن الثامن عشر،إلا أنها كانت تدرك أهمية العلاقات التجارية بين بحارة عمان ومستعمرتي موريشيس وبوربون الفرنسيتين في المحيط الهندي؛ فسعت لتوثيق علاقاتها مع مسقط، ورحب حكام البوسعيد بذلك، مما جعل انجلترا تطالب بضرورة وقوف مسقط على الحياد، في الصراع الانجليزي- الفرنسي. ولما بدأت الحرب الفرنسية- الانجليزية عام ١٧٩٣م،واحتاجت فرنسا مراكز اتصال لها بالشرق،للتجسس على الممتلكات البريطانية في الهند، وكذلك لدراسة الطرق التي قد تستخدمها فرنسا عندما تغزو الشرق، فعينت ممثلا لها في مسقط ليقوم بهذه المهمة.

وزاد النشاط الفرنسي الاستعماري حول الخليج بعد وصول الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م، وسعت بريطانيا -لعرقلة النفوذ الفرنسي في مسقط - إلى عقد اتفاقات مع كل سلطان مسقط وحكومة فارس؛ولتحقيق ذلك الهدف سارعت إلى إرسال علي خان الموظف الفارسي في شركة الهند، إلى سلطان مسقط لعقد اتفاق معه،ونجح المندوب في مهمته.

وتمكن مبعوث انجلترا علي خان من عقد اتفاق مع سلطان مسقط في ٢ جمادى الأولى ١٢١٣هـ/ ١٢ أكتوبر ١٧٩٨م، تضمن سبع مواد منها؛ وجوب تخلي مسقط عن أي اتصال مع الفرنسيين، وعدم السماح لهم أو لسفنهم بالنزول في حال نشوب حرب بين فرنسا وبريطانيا، ونصت المادة السابعة من الاتفاق على السماح للانجليز بإنشاء وكالة تجارية في بندر عباس – الذي كان تابعا لمسقط – متى رغبوا بذلك، وألا يعترض سلطان مسقط على إقامة حامية انجليزية مزودة بالمدافع، وقيامهم بتحصين الميناء. وكان هذا الاتفاق الأول من نوعه بين دولة عربية مستقلة وبين بريطانيا في العصر الحديث. لكن هذا الاتفاق لم يمنع سلطان مسقط من معاودة الاتصال بالفرنسيين، وربما هذا ما شجع بونابرت على إرسال رسالة إليه، لمعرفة مدى استعداد السلطان لمساعدته أثناء الزحف الفرنسي المحتمل إلى الهند؛ لكن وكيل بريطانيا في مخا حال دون وصولها.

ولما شكت حكومة الهند البريطانية في اخلاص سلطان بن أحمد حاكم مسقط، أرسلت إليه مبعوثا(جون مالكوام)، لتأكيد الاتفاق السابق معه، واجتمع به في جزيرة هرمز في يناير عام ١٨٠٠م، وشرح له تفوق بريطانيا على فرنسا بعد تحطيم الأسطول الفرنسي في (أبو قير)، وهدده بقفل الموانئ الهندية في وجه سفن أهل عمان، ونجح بالتالي من تجديد الاتفاق معه في ١٢ يناير ١٨٠٠م؛ وأضاف شرطا جديدا هو سماح سلطان بن أحمد للإنجليز بإرسال وكيل لهم في مسقط، تتم عن طريقه الاتصالات بين الجانبين،بالإضافة إلى إعفاء الانجليز من القوانين المعمول بها في مسقط.

وكانت سياسة سلطان بن أحمد غير مستقرة، فهو يحالف الانجليز ويعقد معهم المعاهدات، وفي نفس الوقت يتصل بالفرنسيين ويحاول ان يقيم معهم علاقات ودية، فقد كان يريد الحصول على المعونة الخارجية من كلا الطرفين، ضد السعوديين الين هددوا بلاده. وكان عندما ترفض بريطانيا مساعدته عسكريا ضد السعوديين، يتجه فورا إلى الفرنسيين.

وفي أعقاب صلح أميان عام ١٢١٧هـ /١٨٠٣م، أرسلت فرنسا ممثلا لها في مسقط، وكانت الحكومة البريطانية في الهند، قد أقلقها تحرك السفن العمانية بين مسقط وموريشيس الفرنسية؛ مما جعلها تنشط في مقاومة النفوذ الفرنسي، وحالت دون وصول مندوب فرنسا إلى مسقط، الذي عاد إلى موريشيس بعد أن عرف بالاتفاقيات التي وقعتها مسقط مع حكومة الهند البريطانية.

ولما تولى حكم مسقط عام ١٢١٠هـ/١٨٠٥م، بدر بن سيف الموالي للسعوديين، خافت بريطانيا على مصالحها في الخليج. وقتل بدر وتولى بعده السلطان سعيد عام ١٨٠٦م، بعد أن تقدمت القوات السعودية في أراضي عمان، فاندفع سعيد لتوقيع معاهدة مع الفرنسيين عام ١٨٠٧م، لكنها لم تخرج إلى حيز التنفذ.مما جعله يندفع كلية إلى الانجليز، الذين نجحوا في إقصاء النفوذ الفرنسي من المحيط الهندي، وسيطروا على موريشيس في ديسمبر عام ١٨١٠م.
وأخذت السياسة البريطانية في الخليج تتضح منذ عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، عندما أرسلت حملتها الأولى ضد القواسم خلفاء السعوديين، متجاهلة تحالفهما،مما أدخل العلاقات السعودية - البريطانية مرحلة جديدة كما سيتضح لاحقا.

القواسم والإنجليز : (مناقشة ١٣)

القواسم قبيلة عربية تنتمي إلى عدنان وموطنها الأصلي نجد، سكنت ساحل عمان، واستقرت هناك في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وعملت بالملاحة وغدت قوة بحرية متفوقة في نهاية ذلك القرن، وامتد نفوذها على المنطقة الممتدة بين قطر وخورفكان وأجزاء من الساحل الإيراني من الخليج.

وكان رحمة بن مطر القاسمي قد استقل عن عمان بعد زوال دولة اليعاربة عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م، واعترف له أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيد بهذا الاستقلال؛ فاتخذ من رأس الخيمة قاعدة له عام ١٧٦٥م، واشتهر القواسم بالجرأة والإقدام في الأعمال البحرية في الخليج والمحيط الهندي. وازداد نشاط القواسم ضد البوسعيديين، واعتدوا على سفن العمانيين التابعين لهم، حتى تمكنت هذه القبيلة في نهاية القرن الثامن عشر من انتزاع جزيرة قشم من سلطان بن أحمد، وأقامت لها مركزا تجاريا في ميناء (باسيدو) بالجزيرة. وتمكن أحد فروعها من الانتقال إلى الشاطئ الشرقي للخليج، وأسس إمارة عربية في لنجه ظلت تدين بتبعيتها لرأس الخيمة.

واقتصرت عمليات الاغارة التي قام بها القواسم على السفن العمانية والمحلية، ولم تشمل السفن البريطانية والأجنبية بشكل عام، باستثناء ما حدث عامي ١٧٩٧-١٧٩٨م، من هجومهم على سفينتين بريطانيتين، واعتذر عنهما الشيخ صقر.

وكان دخول الجيوش السعودية إلى الأراضي العمانية، بداية فترة جديدة في تاريخ القواسم ونشاطهم البحري، فقد رحب سلطان بن صقر بهذه القوة الجديدة، وأعلن عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م، خضوعه لآل سعود واعتناق مبادئ الدعوة السلفية، وتعهد بدفع الزكاة للدولة السعودية طالما لا تغير من وضعه كزعيم للقبيلة، بل استند القواسم إلى مؤازرة الدولة السعودية لتوسيع نشاطهم البحري، ليشمل السفن البريطانية والعمانية على السواء، وفق مبدأ الجهاد الديني، واعتدوا القواسم على سفن بريطانية خلال عامي ١٨٠٤-١٨٠٥م.

وأزعج التحالف القاسمي- السعودي سلطان بن أحمد، الذي ناشد حكومة الهند البريطانية لتعينه على مواجهة خطر هذا التحالف، ورغم تحفظ السياسة البريطانية تجاه الاحتكاك بالسعوديين،خوفا على مصالحها، فقد وجدت ضرورة إرسال حملة حربية ضد القواسم عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، متجاهلة تبعية القواسم لآل سعود، واعتبرتهما حركتين منفصلتين، رغم اعتقادها بأن السعوديين وراء اعتداءات القواسم على السفن الانجليزية في الخليج. ونجحت الحملة بالتعاون مع سلطان مسقط، في توجيه ضربة للقواسم انتهت بتوقيع اتفاقية بينهما في عام ١٨٠٦م، وتضمنت ألاتفاقية:

١- قيام سلام دائم بين شركة الهند والقواسم، ومبدأ المعاملة بالمثل فيما يتعلق بالسفن والممتلكات.

٢- إذا خالف القواسم الاتفاق يدفعون غرامة قدرها عشرون ألف ريال.

٣- يعيد القواسم جميع ما استولوا عليه من الممتلكات البريطانية سابقا.

٤- يقدم القواسم المساعدات اللازمة للسفن البريطانية التي تلجأ لسواحلهم، مقابل حق القواسم بالتردد على الموانئ البريطانية في آسيا.

٥- إذا أرغم سعود القواسم على نقض الاتفاق فيعلن عن ذلك قبل النقض بثلاثة شهور.

يبدو أن بريطانيا سعت لتجنب الاصطدام مع السعوديين، رغم محاولتها عقد الاتفاق السابق دون استشارتهم. وأن الضربة التي وجهتها للقواسم كانت قوية، مما دفع شيخ القواسم للتوقيع دون الرجوع إلى الدرعية.

ساد هدوء نسبي نشاط القواسم بعد الاتفاق، واستمر سلطان بن صقر مسالما حتى عام ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م، إذ عادت سفن القواسم إلى سيرتها السابقة في الاعتداءات على السفن البريطانية، وطلب سلطان بن صقر من حكومة بومباي دفع رسم لرأس الخيمة مقابل منحها حرية التجارة في الخليج، وقبلت ذلك محاولة منها لكسب الوقت والاستعداد، لإرسال حملة ثانية ضد القواسم، مستغلة تحسن علاقتها بحاكم مسقط السيد سعيد، الذي ألح على بريطانيا لإرسال حملة ضد القواسم وحلفائهم السعوديين.

وأرسلت الحملة البريطانية الثانية عام ١٨٠٩م، بتعليمات تقضي بتدمير مراكز القراصنة مع تجنب الاصطدام مع السعوديين، معتمدين على مساعدة حاكم مسقط، وتجنب العمليات البرية، والمحافظة على علاقات المودة مع الإمام السعودي،وإظهار رغبتها له بان يسود السلام التجارة في الخليج العربي.

وتمكنت الحملة من تدمير راس الخيمة في نوفمبر ١٨٠٩م، وهزمت القواسم، وأقلعت بعد يوم واحد، لكنها وبإلحاح السيد سعيد حاكم مسقط، هاجمت أثناء عودتها حامية سعودية في ميناء شناص السعودي على خليج عمان في أول يناير ١٨١٠م، واستولت عليه وسلمته للسيد سعيد. لكن مطلق المطيري الذي كان في عمان أسرع إلى شناص، بعد أن أقلعت الحملة ومعها السيد سعيد، وأرجعها إلى سيادة الدولة السعودية.

ورغم نجاح الحملة في مهمتها ضد القواسم، إلا انها لم تنته بمعاهدة كسابقتها، ولم تؤد في النهاية إلى القضاء نهائيا على قوة القواسم.

وعاد الهدوء النسبي مؤقتا إلى نشاط القواسم البحري بعد الحملة الثانية، وكان ذلك على ما يبدو لتعبئة القوى وتجديد الأسطول، وعاد القواسم لتتبع السفن البريطانية في الفترة (١٨١١-١٨١٨م)؛ مما دفع حكومة الهند إلى إعداد العدة لتوجيه حملة جديدة ضد القواسم(الحملة الثالثة)،خاصة وأنها رأت بوادر انهيار حلفائها السعوديين أمام قوة محمد علي،فأرسلت الحملة عام ١٨١٩م، والتي تمكنت من تدمير رأس الخيمة، وإجبار القواسم على توقيع المعاهدة العامة عام ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، وكانت شاملة لجميع مشايخ العرب الذين فقدوا تأييد السعوديين؛ مما مهد الطريق لبريطانيا لتوطيد نفوذها السياسي في الخليج لاحقا.

العلاقات السعودية – الإنجليزية المباشرة:

تجنبت بريطانيا الحرب مع السعوديين لخوفها من تعرض بريدها بين البصرة وحلب للغارات السعودية، وقصرت عملياتها الحربية على القواسم حلفاء السعوديين وأتباعهم، وظلت تحافظ على هذه السياسة حتى انهيار الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م.

وقد وردت أول إشارة تحت اسم الوهابيين في سجلات حكومة الهند عام ١٢٠١هـ/١٧٨٧م، ويرجع ذلك التأخر لعدم اهتمام حكومة الهند بمتابعة التطورات في وسط الجزيرة البعيدة عن الساحل، فلم يصل نفوذ آل سعود إلى الساحل قبل عام ١٧٨٧م. ودخلت العلاقات السعودية - الانجليزية مرحلة خاصة عندما اضطرت شركة الهند الشرقية عام ١٧٩٤م، إثر خلافها مع السلطات العثمانية في البصرة إلى نقل مركزها التجاري إلى الكويت، التي كانت تتعرض

لغارات السعوديين؛ وأخذ رجال الشركة حينها بالتودد إلى السعوديين، رغم التزامهم بالحياد تجاه الصراع بين الكويت وآل سعود؛ لأن الشركة كان يهمها ألا يتعطل بريدها الصحراوي. رغم وجود إشارات تدل على مساندة بريطانيا للكويت على حساب الدولة السعودية، مما وتر العلاقات بين الجانبين؛ وأرسلت مبعوثا(رينود) لآل سعود عام ١٧٩٩م؛ ليعمل على إعادة العلاقات الطيبة بينهما، لكن فيما يبدو لم تسفر مهمته عن شيء هام.

بدأت حكومة الهند البريطانية بعد ذلك، تخشى جانب آل سعود، ورسمت لنفسها سياسة تقوم على أساس تجنبهم مع إبداء رغبتها دائما باستمرار العلاقات الطيبة بين الجانبين، ولذلك أرسلت إلى وكيلها في بوشهر تعليماتها بهذا الخصوص لينقلها إلى أمير الدرعية.

ورغم إفصاح حكومة الهند البريطانية عن تأييدها لإمام مسقط، إلا ان الأمير سعود كان حريصا ألا يدخل في صراع مع الانجليز في ذلك الوقت،وأتاحت له مراسلة حكومة الهند الفرصة في السيطرة المباشرة على أملاك القواسم، لدرجة أنه احتجز سلطان بن صقر لديه في الدرعية عام ١٨١٠م، وعين عاملا سعوديا للإشراف الإداري على المنطقة التي كانت تابعة للقواسم من الساحل العماني وربطه بالدرعية مباشرة، ثم أرسل إلى حاكم بومباي مؤكدا امتناع القواسم عن التعرض للسفن البريطانية في الخليج. وحاولت حكومة الهند البريطانية أن تحيط مساعدتها للسلطان سعيد بالسرية التامة، وأوعزت إليه بأن يقبل إقامة سلام مع السعوديين، دون أن يشير إلى صلاته بالحكومة البريطانية. وأكدت الحكومة البريطانية لأمير الدرعية أن عملياتها البحرية السابقة كانت موجهه إلى القراصنة، مظهرة ارتياحها لرد سعود السابق.

وسعى السعوديون إلى مهادنة البريطانيين، وتجنيبهم التدخل في صراعهم مع سلطان مسقط، ورأت الحكومة البريطانية أن من الحكمة عدم توقيعها اتفاق أو معاهدة رسمية أو شبه رسمية مع آل سعود، واكتفت بإظهار محافظتها على العلاقات الودية معهم، منتظرة نتائج الحملة المصرية إلى الحجاز، رغم سعي سعود لتوقيع اتفاق معها.

ولما سقطت الدرعية عام ١٨١٨م، أظهرت كراهيتها لآل سعود، وأنها لم تكن راغبة في تكوين وحدة سياسية كبيرة بين الإمارات العربية في الخليج تحت سيادتهم، لذلك بادر حاكم الهند بتهنئة ابراهيم باشا بنجاحه بالقضاء على الدولة السعودية. ورغم رضى الحكومة عن سقوط الدولة السعودية إلا أنها كانت تخشى أن تحل قوة محمد علي باشا مكانها، وتشكل خطرا جديدا عليها وعلى حليفها سلطان مسقط. وقامت سياسة بريطانيا إزاء القوة الجديدة لمنع قيام وحدة سياسية قوية على الخليج على أساسين هما:

أولا: محاولة إقحام ابراهيم باشا في مطاردة السعوديين وحلفائهم القواسم بقصد التخلص منهم نهائيا؛ وبالتالي انهاك القوة المصرية.

ثانيا: محاولة استطلاع أهداف ابراهيم باشا في الخليج والتحالف معه. وكلفت الكابتن (سادلير) بهذه المهمة التي لم تنجح.

وسعت بريطانيا لتوطيد نفوذها في الخليج، والوقوف في وجه أي قوة جديدة تحاول الظهور على سواحله. وضمان حالة التفكك السياسي بين مناطق الخليج. وخالفت سياستها السابقة بإقحام نفسها في عمليات برية على أرض الجزيرة، وشاركت عام ١٨٢١م قوات السلطان سعيد في عمليات برية ضد قبيلة بني بو علي (الوهابية) الموالية لآل سعود، التي كانت تهاجم السفن البريطانية. مما يدل على أن الموقف البريطاني السابق من الدولة السعودية، كان مجرد سياسة لا تنم عن رغبتها في إقامة علاقات ودية دائمة معها.

العلاقات السعودية- الفرنسية :

عندما حاولت فرنسا الاتصال بآل سعود عام ١٨٠٨م، كان النفوذ الانجليزي قد ازداد بصورة واضحة، ولم تتمكن بعثة (جاردان) الفرنسية من الاتصال بآل سعود، والوقوف على مدى استعدادهم لقطع طريق بريد الهند، لدرجة أن البعثة وصلت إلى نتيجة مفادها عدم جدوى منافسة الوجود الانجليزي في منطقة الخليج، ولم تحاول الاتصال بآل سعود.

ورغم وجود إشارات غير مؤكدة على اتصال نابليون بأمير الدرعية عام ١٨١١م، عن طريق بعثة فرنسية، وأنهما اتفقا على أن يقدم سعود المساعدة لنابليون لاكتساح الدولة العثمانية والوصول إلى الهند، مقابل توسع سعود باتجاه سوريا، وأن بريطانيا أفشلت المباحثات، حيث حذرت سعود من خطر مثل هذا التحالف. لكن فشل فرنسا أمام روسيا عام ١٨١٢م أدى إلى إنهاء التحالف السعودي الفرنسي.(انظر للاستزادة التفاصيل في الكتاب المقرر ص١٩٠-١٩١).

ثانيا: في منطقة البحر الأحمر:

ظهر التنافس البريطاني الفرنسي منذ منتصف القرن الثامن عشر عبر الطرق المؤدية للهند ومن ضمنها طريق البحر الأحمر، وخاصة حينما سعى ملك فرنسا لويس الخامس عشر لتجديد معاهدة الامتيازات التي سبق أن عقدها مع الدولة العثمانية عام ١٥٣٥م، التي أصبح بمقتضاها لفرنسا حق حماية رعاياها من المسيحيين الكاثوليك في كافة أرجاء الدولة العثمانية، فخشيت انجلترا على مصالحها في الشرق من النفوذ الفرنسي، وأن تستغل فرنسا طريق البحر الأحمر الملاحي وتهدد مصالحها في الهند؛ ولذا سعت انجلترا لإحياء طريق البحر الأحمر، وإعادة مكانته التي فقدها بعد تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح. وسعت لذلك من خلال علي بيك حاكم مصر الذي وسع نفوذه إلى الحجاز، وأعاق التنافس الانجليزي- الفرنسي، ونجحت انجلترا في عقد اتفاقية مع علي بيك الكبير عام ١٧٧٣م، فتح بموجبها مرفأ السويس لمراكبهم، حتى أصبح العلم البريطاني، أول الأعلام الأجنبية التي رفرفت في البحر الأحمر، بعد أن كان بحرا اسلاميا مغلقا في وجه السفن البريطانية.

وعقدت بريطانيا اتفاقيات جديدة في عهد محمد بيك أبو الذهب، لوصول البضائع الهندية إلى السويس مقابل ضريبة قدرها ٨% بدلا من ١٤% التي كانت تدفعها لحاكم جدة، لكن وفاة محمد أبو الذهب عام ١٧٧٦م أعاق تنفيذ الاتفاقية، التي لم يلتزم بها من جاء بعده. ودخل الفرنسيون كمنافسين للانجليز، فعقدوا اتفاقية مع مراد بيك عام ١٧٨٥م، حصلت بمقتضاها على شروط أفضل مما حصل عليه الانجليز، وعقدت اتفاقيات أخرى مع كبير ملتزمي الجمارك، وبعض مشايخ العربان لنقل التجارة بين السويس والقاهرة. وكان الدافع لفرنسا من هذه الاتفاقات، هو السيطرة على طريق البحر الأحمر ومصر. ومنذ عام ١٧٨٥م ظهر منافس جديد للبريطانيين في البحر الأحمر، تمثل في التجار الأمريكيين الذين لم يقتصر نشاطهم على تجارة البن اليمني بل امتد إلى نقل التجارة الشرقية إلى الأمريكيتين وإلى أوروبا منافسين بذلك شركة الهند الشرقية البريطانية.

وعبر(ماجلون) قنصل فرنسا في مصر عام ١٧٩٥م، عن نوايا بلاده بالسيادة على البحر الأحمر، لتهديد مصالح البريطانيين، وطردهم من الهند. وجاءت حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م كجزء من هذا الهدف، وسعى الفرنسيون بعد وصولهم إلى مصر لتجميع قواتهم في السويس لتوجيه الضربة القاضية لبريطانيا في الهند، ودرس المهندسون الفرنسيون مشروع قناة البحرين المتوسط والأحمر . لكن تحطم الأسطول الفرنسي في (أبي قير) وفشل حملة الشام عام ١٧٩٩م، أفشل المخطط الفرنسي، الذي نبه بريطانيا لأهمية طريق البحر الأحمر بالنسبة إلى مصالحها.

ولذلك سعت بريطانيا للسيطرة على المراكز الاستراتيجية في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، للوقوف في وجه أي محاولة فرنسية، فوثقت وجودها هناك، وأصبح لها وكالة في ميناء مخا اليمني، وعقدت معاهدة صداقة مع سلطان لحج وعدن عام ١٨٠٢م، كانت بداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع أهالي المنطقة، لضمان المصالح البريطانية في الطريق البحري إلى الشرق عبر البحر الأحمر. ونجحت في ابعاد النفوذ الفرنسي عن تهديد مصالحها هناك،

وضاعفت جهودها للسيطرة على هذا الطريق، حتى تمكنت من السيطرة على عدن عام ١٨٣٩م، واتخذت منها قاعدة لحماية مصالحها وتأمين مركزها ضد النفوذ الفرنسي.

==========

المحاضرة التاسعة

الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام(يوليو ١٧٩٨-سبتمبر ١٨٠١م) (مناقشة ١٢)

حلقة من حلقات الزحف الاستعماري والتنافس البريطاني الفرنسي على البلاد العربية خلال الحكم العثماني.

تمهيد:

تعتبر الحملة الفرنسية من أدوار التنازع الفرنسي البريطاني على الاستعمار، الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر الميلادي، والذي دخل مرحلة جديدة في أعقاب الثورة الفرنسية، التي قضت على الملكية والنظام القديم وأعلنت الجمهورية؛ مما أثار الدول الملكية في أوروبا عليها، ودخلت انجلترا في حروب مع فرنسا الجمهورية حتى عام ١٧٩٥م. وفازت فرنسا في صراعها مع الدول الأوروبية وتوسعت أملاكها خصوصا على حساب ايطاليا والنمسا وبلاد البلجيك، وأصبح لها المقام الأول في القارة الأوروبية، إلا أن بريطانيا بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحر في مأمن من ضربات نابليون وانتصاراته. وفكر نابليون في ميدان حرب يقهر فيه بريطانيا، فوجد مصر أفضل ميدان لذلك، ويسيطر بنفس الوقت على جزء من أملاك الدولة العثمانية، مستغلا ضغط روسيا والنمسا عليها في شبه جزيرة البلقان. وأدرك نابليون أهمية موقع مصر باعتباره الطريق المؤدي إلى الهند، ويسهل على فرنسا مهاجمة بريطانيا من مصر.

وجدت فكرة الحملة الفرنسية على مصر قبل نابليون والثورة الفرنسية، وشغلت بال كثير من المفكرين ورجال السياسة والدبلوماسية، فقد عرضها الفيلسوف (ليبنتز) على لويس الرابع عشر عام ١٦٧٢م، كما راودت الفكرة الدوق(دي شوازل) كبير وزراء لويس الخامس عشر،لكنها لم تخرج إلى حيز التنفيذ، وظلت أملا لدى (شوازل) حتى سقطت وزارته عام ١٧٧٠م. وتجددت الفكرة في عهد لويس السادس عشر،عندما كتب بشأنها سفير فرنسا في الآستانة(سانت بريست)،وكذلك البارون(دي توت)، على اعتبار أن احتلال فرنسا لمصر سيؤدي إلى توطيد مركزها التجاري في مصر وبلاد المشرق، ويكسبها مركزا ممتازا في العالم.

وفي عام ١٧٨٣م، قدم المسيو (مور) قنصل فرنسا في الاسكندرية، تقريرا، تنبأ فيه بقرب تفكك الدولة العثمانية، ونصح حكومته باحتلال مصر، لكن وزير الخارجية لم يوافقه الرأي، لأن سياسة فرنسا تقوم الصداقة مع الدولة العثمانية. واهتمت وزارة الخارجية الفرنسية بتنشيط تجارة فرنسا مع مصر والشرق، وأخذت تسعى لدى كل من الحكومة العثمانية في الآستانة والبكوات المماليك في مصر ، لحماية المتاجر الفرنسية في مصر من عبث المماليك، وكذلك لضمان مرور تجارتها من أوروبا والهند عن طريق مصر، لكن تصرفات الحكام المماليك نحو التجار وفرض الضرائب عليهم، جعل التجار الفرنسيين يشكون إلى حكومتهم سوء معاملتهم.

واستمر التجار بالشكوى بعد الثورة الفرنسية؛فاستجابت الحكومة لشكواهم بتعيين المسيو (شارل مجالون) قنصلا عاما لفرنسا في مصر عام ١٧٩٣م، وكان خبيرا بالشؤون المصرية، حيث عمل بالتجارة مع مصر أكثر من ثلاثين سنة، وكان من أنصار احتلال فرنسا لمصر، ولما استلم مهامه أخذ يرسل إلى وزارة الخارجية التقارير والمذكرات التي تبين عبث المماليك بمصالح التجار الفرنسيين في مصر، وضرورة أن تستخدم فرنسا القوة حيالهم، وأظهر

المزايا التي تنالها فرنسا إذا توسع نفوذها في مصر والبحر الأحمر. وبذلك مهد مجالون لمشروع الحملة، واستولت الفكرة على ذهنه، فذهب إلى فرنسا عام ١٧٩٧م، ليدعو رجال الدولة للقيام بهذا المشروع، والتقى في مسعاه مع أفكار نابليون بونابرت الذي اختمرت الفكرة في ذهنه أثناء وجوده في ايطاليا، حيث اطلع هناك على جميع الكتب الخاصة بالشرق، خصوصا ما له صلة بالديار المصرية، كما درس وثائق البحرية الفرنسية المتعلقة بمصر.

كانت الحكومة الفرنسية والرأي العام الفرنسي يميلان إلى مهاجمة بريطانيا نفسها حتى تضطر لطلب الصلح، لكن بونابرت أقنع حكومته بخطورة هذا العمل قبل أن تضمن القوة البحرية التي تفي بمواجهة البحرية الانجليزية، واقترح على حكومته أن ترسل جيشا لغزو مصر، باعتبار هذه الخطوة لا تقل أهمية وأثرا عن غزو بريطانيا نفسها. وأخيرا استجابت الحكومة الفرنسية لهذه الأفكار ولحجج نابليون، وقررت تنفيذ المشروع على يد نابليون في ٥ مارس ١٧٩٨م.

الإعداد للحملة:

في ١٢ أبريل ١٧٩٨م، أصدرت حكومة الإدارة قرارا بوضع(جيش الشرق) أي جيش الحملة على مصر تحت قيادة بونابرت، وكان القرار مكونا من ست مواد ومقدمة، واشتملت المقدمة على بيان الأسباب الي التي دعت لإرسال الحملة؛ لعقاب المماليك الذين أقاموا صلات ودية مع الإنجليز، وأساؤا معاملة التجار الفرنسيين، وكذلك لأهمية موقع مصر في تهديد مصالح بريطانيا في الهند.ومما تضمنته المواد ضرورة طرد الانجليز من ممتلكاتهم في الشرق، وأن يعمل قائد الحملة على شق قناة السويس، وتحسين أحوال المصريين، والمحافظة على علاقات ودية مع السلطان العثماني ورعاياه، وأن تظل هذه الأوامر سرا مكتوما.

أعد نابليون العدة لحملته؛ فاختار جنوده من جيش ايطاليا، الذ أحرز معه انتصارات عظيمة، وغيرهم، حتى بلغ تعداد قوات الحملة(٣٦,٠٠٠) مقاتل، واختار قادة لهذا الجيش ممن اشتهروا بالقدرة والكفاءة، كما اختار(١٤٦) عضوا، ما بين عالم وأديب ومهندس، تألفت منهم لجنة العلوم والفنون، التي كان لها شأن في الحملة. وخرجت الحملة بقواتها ومؤنها في ١٩ مايو، من موانئ متعددة،أهمها طولون الذي تحركت منه معظم السفن، ووصلت السفن إلى مالطة واحتلتها، وترك بونابرت فيها الحماية اللازمة وغادرها نحو الاسكندرية التي وصلتها الحملة في أول يوليو ١٧٩٨م.

ونزلت الحملة غرب الاسكندرية في ٢ يوليو، وتمكنت من احتلالها رغم مقاومة أهلها، وبدأت طلائع جيشه بالزحف صوب القاهرة مساء يوم ٣ يوليو، والتقى الجيش الفرنسي مع قوات مراد بيك في معركة حامية يوم ١٣ يوليو، في شبرا خيت، انتهت بهزيمة مراد بيك، وواصل الفرنسيون التقدم نحو القاهرة، وتجددت المواجهة بين الجانبين في معركة إمبابة يوم ٢١ يوليو، وكانت معركة فاصلة انتهت بهزيمة مراد وقواته وانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد.

وتجدر الملاحظة إلى أن زحف القوات الفرنسية نحو القاهرة لم يكن نزهة عسكرية، فقد لقي الجنود كثيرا من الشدائد والصعوبات، وانتشرت بينهم روح الاستياء، ومما زاد في متاعب الجنود أن العربان ظلوا يتعقبونهم ويقتلون الجند المتخلفين ويفاجئون الجيش بهجوم خاطف. واعترف نابليون نفسه بالمشقات العظيمة التي لاقاه جيشه أثناء زحفه صوب القاهرة.

احتلال القاهرة وسياسة بونابرت:

لم يشترك ابراهيم بك في معركة امبابة، وكان يراقبها عن بعد، ولما حلت الهزيمة بجيش مراد حمل ابراهيم أمواله وغادر إلى الشام بصحبة أبو بكر باشا والي مصر. وترك المماليك القاهرة دون أي إجراء للدفاع عنها؛ وساد الذعر وعم الاضطراب بالقاهرة، فقرر المشايخ والعلماء تسليم المدينة، مقابل الأمان للسكان، وقبل نابليون الذي قابل العلماء يوم ٢٤ يوليو، ودخل القاهرة بعد أن طمأن العلماء وسكان القاهرة، بأنه سوف يعمل على راحتهم ويحكم الشريعة الاسلامية بينهم وفق ما جاء في بيانه الذي وزعه يوم ٢ يوليو في الاسكندرية.

أوضح نابليون أسس سياسته نحو المصريين في هذا المنشور، وأنه ما جاء إلى مصر إلا لتأديب المماليك، وأظهر احترامه للمصريين والإسلام ولحضارة مصر، وأنه عازم على وضع أساس لحكومة أهلية يديرها (العلماء والفضلاء)، لإصلاح حال الأمة. وقد سعى لكسب محبة المصريين، لكنه لم يدرك أهمية الروابط التاريخية والدينية التي تجمعهم بالعثمانيين تحت لواء الخلافة، لذلك سعى لإقناع المصريين بأن الفرنسيين أصدقاء للسلطان العثماني. ونبه نابليون على قادته ورجاله بضرورة اظهار الاحترام العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائرهم الدينية، وشارك بنفسه المصريين في أعيادهم الدينية، لكن أثر هذه السياسة لم تكن كما انتظره الفرنسيون، ومع ذلك حافظ نابليون عليها، ومن أجل الوصول إلى أهدافه أشرك المصريين في نظم الحكم التي وضعها لإدارة البلاد.

حملة الشام ١٧٩٩م:

غضبت الدولة العثمانية من احتلال فرنسا جزءا من أملاكها، ورفضت طلب فرنسا الاعتراف بالأمر الواقع. ولما تحطم الأسطول الفرنسي في واقعة(أبي قير) ؛ أقدم الباب العالي العثماني على إعلان الحرب على فرنسا، متحالفا مع روسيا وبريطانيا. وأرسل السلطان حملتين إلى مصر،إحداهما: بحرية لمهاجمة سواحل مصر الشمالية تؤيدها القوة البحرية الانجليزية، والثانية: برية يعدها باشاوات الشام لتهاجم مصر من الشرق . وقرر نابليون غزو بلاد الشام لمواجهة الخطة العثمانية قبل أن تحاصره، واعتبر ذلك مقدمة لفتح بلاد الهند، وبدأ حملته على بلاد الشام في فبراير ١٧٩٩م، واستولى في طريقه على المدن الساحلية، ولكنه اصطدم بالمقاومة العنيفة التي أبدتها عكا، بفضل متانة حصونها وبسالة حاميتها، ومساعدة الأسطول الانجليزي من البحر، وفي أثناء حصار عكا استطاعت قوات نابليون أن تهزم قوة عثمانية في الجنوب الشرقي من عكا في ١٦ أبريل.

اعتبر نابليون أنه بهذا النصر قد حقق أهدافه من حملة الشام، وأنه حطم القوة العثمانية التي هدفها غزو مصر، فعاد إلى مصر، حيث وجد الموقف الداخلي هناك متأزم ضد الغزو الفرنسي. ورحل نابليون سرا إلى فرنسا فوصل باريس في ١٦ أكتوبر ١٧٩٩، وكان قبل ذلك، يراقب الحوادث في أوروبا وينتظر الفرصة المناسبة للعودة إلى فرنسا. وفي الشهر الثاني لوصوله حدث(انقلاب برومير) الذي قضى على حكومة الإدارة ورفع بونابرت إلى مقام القنصلية.

الحملة في عهد كليبر (٢٢ أغسطس ١٧٩٩- ١٤ يونيو ١٨٠٠م):

تولى كليبر القيادة العامة لجيش الشرق بعد رحيل نابليون، الذي أعطاه تعليمات للدخول في مفاوضات مع العثمانيين للجلاء عن مصر، إذا لم تصله الإمدادات من فرنسا، على أن يؤجل الجلاء إلى ما بعد عقد الصلح العام بين فرنسا وخصومها في أوروبا.

كان كليبر يفضل الانسحاب المشرف، لأنه اعتقد أن المصير المؤكد للحملة هو الفشل، لاعتبارات كثيرة؛ فخزانة الحكومة خاوية، ومرتبات الجند متأخرة، والجيش العثماني على الأبواب، والمصريون متحفزون للثورة، وحصار الانجليز اشتدت وطأته، وروح الجند أصبحت ضعيفة؛ لذا قرر أن يدعو العثمانيين إلى المفاوضات، وكان لديه استعداد للجلاء العاجل عن مصر. ورحب العثمانيون برغبة كليبر، ودارت مفاوضات العريش بين مندوبي كليبر ومندوبي الصدر الأعظم، وسدني سميث، قائد بعض قطع الأسطول الانجليزي في شرق المتوسط الذي لم يكن مندوبا رسميا من قبل حكومته، وأراد حصر موضوع المفاوضات بجلاء فرنسا عن مصر دون انهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا. وانتهت مفاوضات العريش إلى الاتفاق على جلاء القوات الفرنسية بكامل أسلحتها عن مصر، وعودتها إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية.

لكن الحكومة الانجليزية فضلت أن يبقى الفرنسيون في مصر، أو أن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب، لأن عودتهم إلى فرنسا قد تؤثر على الموقف في القارة الأوروبية؛ ونقلت موقفها إلى كليبر قبل توقيع اتفاق العريش؛ الأمر الذي

اعتبره كليبر خيانة من الحكومة البريطانية، ورفض الجلاء، وهزم العثمانيين المتجمعين لدخول القاهرة في عين شمس يوم ٢٠ مارس عام ١٨٠٠م. وتمكن الفرنسيون من القضاء على ثورة القاهرة الثانية.

ووصلت بعد ذلك موافقة الحكومة الانجليزية على اتفاق العريش، لكن تغير الأوضاع في فرنسا ، ووصول نابليون إلى منصب القنصلية، جعلت كليبر يتشبث بالبقاء في مصر، وقام ببعض الاصلاحات الإدارية والمالية، التي لم تنفذ، إذ تمكن سليمان الحلبي من طعن كليبر طعنة قاتلة يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠م.

الحملة في عهد مينو(١٤ يونيو ١٨٠٠ – سبتمبر ١٨٠١م):

تسلم (مينو) القيادة العامة لجيش الشرق بعد مقتل (كليبر)، ولم يكن يتمتع بكفاءة عسكرية مثل سلفه، وكانت معظم خبرته في مناصب إدارية، لذلك قبل الضباط العمل تحت إمرته، وكان مينو مؤيدا للاستعمار، ويرى أن مصر خير مستعمرة لفرنسا؛ لذلك أعلن عزمه على البقاء في مصر، واعتبر اتفاق العريش تسليما من كليبر، مما أدى إلى انقسام الضبط والجنود بين البقاء والجلاء، وعجل هذا بنهاية الحملة.

وأعلن مينو للحكومة الإنجليزية أن أمر الجلاء عن مصر من اختصاص الحكومة الفرنسية وحدها، وانصرف لتنظيم البلاد، وأصدر صحيفة عربية باسم (التنبيه)، لكن الظروف لم تسعفه لتنفيذ مشروعاته، حيث سعى الانجليز للاسراع في جلاء الفرنسيين عن مصر، ووضع الانجليز والعثمانيون خطة محكمة لمهاجمة مصر من نواح متعددة . وأخطأ مينو بتقسيم قواته على المدن المصرية. واستطاع الانجليز النزول في أبي قير وتمكنوا من هزيمة الفرنسيين في(كانوب) في ٢١ مارس ١٨٠١م، واعتصم (مينو) بالإسكندرية، وقنع الانجليز بترك قوة لحصارها، وتقدموا إلى القاهرة.

وازداد حرج موقف الفرنسيين؛ حيث لم تصل مساعدة القنصل بونابرت، وحملة الصدر الأعظم وحملات انجلترا تتجه نحو القاهرة؛ لذلك كله آثر (باليار) قائد حامية القاهرة التسليم، بشروط اتفاق العريش، وشدد الانجليز الحصار على الإسكندرية مما اضطر (مينو) إلى التسليم بالشروط نفسها في سبتمبر ١٨٠١م، وبذلك جلت القوات الفرنسية عن مصر.

نتائج الحملة الفرنسية :

يمكن توصيف النتائج على النحو التالي:

١- سياسيا : رغم استعانة نابليون بالمصريين في إدارة مصر لتدعيم سياسته الاستعمارية، إلا أنه لم يستطع كسب مودة المشايخ والسكان، وكان قيام أهالي القاهرة بثورتين ضد الحكم الفرنسي، وانتشار المقاومة في الأقاليم، قد دلل على فشل سياسة نابليون وقواده الاسلامية الوطنية، وقد أكسبت هذه السياسة المصريين وعيا سياسيا تمسكوا به بعد ذلك، حتى وصل بهم الأمر إلى اختيار حاكمهم بشروطهم عام ١٨٠٥م.

وكانت ردة فعل بريطانيا تجاه الحملة سريعة؛ فعقدت لأول مرة معاهدة تحالف مع الدولة العثمانية وروسيا في يناير ١٧٧٩م، وغيرت بريطانيا من علاقاتها بالدولة العثمانية، فلم تعد علاقات تجارية فقط، بل أصبحت سياسية في المقام الأول، وأصبح السفير البريطاني في استانبول تعينه وزارة الخارجية البريطانية، وليس شركة الليفانت، واتبعت بريطانيا سياسة المحافظة على التكامل السياسي للدولة العثمانية حتى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م.

٢- اجتماعيا : لم يتغلغل الفرنسيون في حياة المصريين ويتعرفوا على احتياجاتهم، واكتفوا ببعض الاصلاحات في المجال الصحي، وإكثار الملاهي والأندية والمسارح،باعتبارها وسائل لتغيير عادات المصريين، ولذا فإن الاثار الاجتماعية للحملة ظهرت في الفترات التالية للحملة أكثر منها وقت الحملة نفسها.

وأضرت الحملة ببعض طبقات المجتمع المصري، حيث انتشرت بعض المفاسد، وانحط مستوى الأخلاق لدى الفئة الوضيعة بصفة خاصة، وظل أهل الطبقات الوسطى والعليا على تمسكهم بعاداتهم وأخلاقهم، وثاروا ضد الفرنسيين؛ لأنهم أدركوا أن أغراضهم استعمارية بحتة.

٣- عسكريا: أظهرت الحملة ضعف القوة المملوكية والعثمانية إزاء التقدم العسكري الفرنسي، ووقف الشعب المصري على حقيقة هذه القوة، وجعل زعماء الشعب يعدون أفراده للمقاومة الشعبية والتصدي للدفاع عن بلادهم بأنفسهم.

٤- اقتصاديا : عانت مصر خلال وجود الحملة من حالة الحرب والثورات الداخلية، مما أدى إلى تأخر الانتاج الزراعي والصناعي، وأحجم الناس عن استثمار أموالهم في المجال الاقتصادي، لانتشار أعمال السلب والنهب. وأدى حصار الأسطول الانجليزي للسواحل المصرية إلى تعطيل التجارة الخارجية، وأصبحت الصادرات والواردات بحكم المعدومة، مما قلل الانتاج المحلي. واجتهد الفرنسيون في الحصول على الأموال اللازمة للجيش والإدارة الفرنسية من الموارد المحلية، وزادوا الضرائب والغرامات، مما دفع أهل الريف إلى ترك قراهم ومزارعهم، وكذلك فعل أرباب الصناعة والتجارة، خوفا من استيلاء الفرنسيين على منتجاتهم. وساءت أحوال البلاد الاقتصادية، ولم تنجح جهود الفرنسيين لإصلاح الأوضاع بتطبيق الأنظمة الأوروبية، بل عارضها الشعب.

ورغم ذلك كله فقد كانت اصلاحات الفرنسيين الاقتصادية تمهيدا للتطور الاقتصادي في مصر في القرن التاسع عشر. ومن اصلاحاتهم اعتنائهم بالري والقنوات والجسور ومجرى نهر النيل، وأنشأوا حديقة النبات في القاهرة. وفي مجال الصناعة أنشأوا مصنعا للأقمشة وآخر لصناعة البارود، وصنعوا الصابون من الزيوت المصرية، كما أصلح (مينو) نظام الضرائب وملكية الأطيان، ومنع الملتزمين من تحصيل الأموال ومن التدخل في شؤون القرى، وأسس لجنة لمسح الأراضي الزراعية، لكن مشروعه لم ينفذ.

٥- علميا : كان أثر الحملة أكثر وضوحا في الناحية العلمية، بسبب مرافقة كثير من العلماء للحملة، لتنظيم الاستعمار الفرنسي في البلاد. وأسس نابليون مجلسا استشاريا للحكومة سماه(المجمع العلمي) تكون من ٤٨ عالما، وقسم المجمع إلى أربعة أقسام : الرياضيات، والأدب والفنون، والطبيعيات، والاقتصاد السياسي، وكان أعضاء المجمع يقومون بأبحاث كل في مجال اختصاصه، وتشعب نشاط العلماء، فدرسوا آثار البلاد وتاريخها، وطبيعة أرضها وأجناسها، ومنتجاتها، وغير ذلك الكثير مما تضمنه كتاب (وصف مصر) الذي وضعه علماء الحملة.

وقام علماء الحملة بدراسة وتنفيذ بعض المشروعات، مثل : مشروع قناة السويس لتربط البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، وإدخالهم الطباعة لمصر عن طريق مطبعة الحملة. لذلك كله تركت الحملة أثرا علميا واضحا، فإلى جانب ما رصدته عن الحياة المصرية في كتاب (وصف مصر)، فقد اكتشفت حجر رشيد الذي كان بدية لحل رموز اللغة المصرية القديمة، مما أثار إعجاب الفرنسيين وغيرهم بالحضارة المصرية القديمة.

==========

المحاضرة العاشرة

الزحف الاستعماري على بلدان المغرب العربي

حلقة من حلقات الزحف الاستعماري والتنافس البريطاني الفرنسي على البلاد العربية خلال الحكم العثماني.

تمهيد:

ضعفت روابط القيادات الاقليمية لبلاد المغرب العربي بالدولة العثمانية؛ نتيجة للضعف العام الذي حل بالدولة العثمانية نفسها، ولعزلة كل إقليم عن الآخر، واهتمام القيادات بجمع الثروات على حساب السكان، حتى أصيبت بلدان

المغرب العربي بالتقهقر والتخلف مع بداية القرن التاسع عشر. حدث هذا في الوقت الذي كانت أوروبا تشهد بدايات الثورة الصناعية وسيطرة الطبقى الوسطى على الحكم، وأصبحت أوروبا بحاجة إلى تأمين طرق المواصلات البرية والبحرية، وتطلعت إلى السيطرة على المناطق المتخلفة. وكانت تجربة فرنسا في الجزائر أولى التجارب الأوروبية الناجحة، واقتطعت الجزائر من الجسد المغربي، وكان ذلك بعد أن شعرت فرنسا بأهمية موارد الجزائر وإمكانياتها لها.

الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠م : (مناقشة ١٤)

تمتعت فرنسا بامتيازات تجارية خاصة في الجزائر منذ القرن السادس عشر. وكانت لها مؤسسات تجارية في المدن مثل عنابة، والقالة، ورأس بونة، والقل، وكانت هذه المؤسسات تدفع ضرائب متفق عليها لكل من الباشا وباي قسطنطينة، الذي تقع هذه المؤسسات في إقليمه. وتطورت العلاقات الجزائرية الفرنسية بعد الثورة الفرنسية، حيث اعترفت الجزائر بالجمهورية الفرنسية الجديدة، التي كانت تحت الحصار الأوروبي، وقدمت لها عام ١٧٩٦م قرضا بدون فائدة بلغ مليون فرنك، على أن يستعمل لشراء الحبوب من فرنسا. ولما تولت حكومة الإدارة في فرنسا؛ غيَرت طريقة دفعها للحكومة الجزائرية، حيث لجأت إلى التاجرين اليهوديين الجزائريين(بكري وبوشناق) ليدفعا للحكومة الجزائرية، وكان للتاجرين تأثير كبير في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ولهما مراكز تجارية في معظم موانئه، مثل مرسيليا وجنوى والإسكندرية وأزمير، وكان لهما نفوذ كبير في معظم الدول، نظرا للقروض التي يتقدمان بها، أو الوساطات التي يقومان بها. وقدر دين فرنسا لهما عام ١٧٩٥م، بمليونين من الفرنكات.

ولما عيَن هؤلاء التجار اليهود، يعقوب بكري ممثلا لهم في باريس، ثار الرأي العام الجزائري ضد اليهود الجزائريين.وتأثرت العلاقات الفرنسية الجزائرية منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى عام ١٨١٥م بالصراع الفرنسي البريطاني ؛ ورغم ضغط بريطانيا على الجزائر، حتى قطعت الجزائر علاقاتها مع فرنسا؛ فقد تمكنت حكومة القنصلية من توقيع اتفاقية هدنة مع الجزائر عام ١٨٠٠م، والتي تحولت إلى صلح دائم. ثم معاهدة صداقة عام ١٨٠١م؛ نصت على حرية التجارة، وإلغاء بيع الرعايا الفرنسيين كأسرى أو رقيق في شمال أفريقيا.

ورغم ذلك إلا أن العلاقات الفرنسية الجزائرية في عهد القنصلية كانت غير ودية، وكان نابليون يفكر دائما في إقامة إمبراطورية واسعة في الشرق تشمل مصر والهند وبلاد فارس والمغرب العربي، وفكر بتنفيذ الجزء الخاص بشمال أفريقيا (المغرب العربي) عام ١٨٠٢م . وأصبحت علاقة نابليون بالجزائر تقوم على التهديد؛ وانتهز فرصة أسر سفينتين فرنسيتين، وحاول أن يظهر الجزائريين بمظهر المعتدي على العلم الفرنسي، مهددا بهدم ولاية الجزائر.

وفي عام ١٨٠٨م، وقعت فرنسا معاهدة سرية مع روسيا لمواجهة النشاط البريطاني في شمال افريقيا، والتي تضمن أن يكون احتلال الجزائر من نصيب فرنسا. وأخذت فرنسا تعد العدة لتنفيذ ذلك، وأرسلت ضابطا في مهمة سرية ليجمع المعلومات وخرائط لمدينة الجزائر، لكنه وقع في أسر بريطانيا، ثم هرب من مالطا إلى فرنسا، وكتب تقريرا حول استحكامات مدينة الجزائر، وتضمن خطة للاستيلاء عليها. لكن انشغال نابليون في أوروبا أجل الغزو الفرنسي للجزائر. وفي أعقاب مؤتمر فينا أعادت فرنسا علاقاتها بالجزائر وحصلت على امتيازات جديدة، وخفضت الجزائر الضريبة السنوية المفروضة على فرنسا.

وفي عام ١٨١٨م، تولى الباشا حسين الحكم في الجزائر(آخر دايات الجزائر)، وورث قضية الدين الفرنسي لرعاياه اليهود، وواجه ضغطا من بريطانيا وفرنسا، بعد مؤتمر فيينا، لإلغاء الرق، وإبطال الضريبة السنوية على الدول الأوروبية، لكن الباشا طلب من فرنسا معالجة مسألة الديون، ولما ماطلت الحكومة الفرنسية، طالب بسحب القنصل الفرنسي(دوفال) باعتباره يخفي ردود حكومته، وتعيين قنصلا آخر. وردت فرنسا بإرسال سفينة حربية إلى الجزائر، وطالبت الباشا بتعويضات مالية ادعت بها.

وأصر الباشا على تبديل القنصل، ومعالجة مسألة الدين؛ ردت فرنسا بإرسال السفن الحربية بقرار من مجلس الوزراء في أبريل عام ١٨٢٧م. وفي نفس الفترة اقتعلت فرنسا ضربة المروحة الشهيرة(ضرب الباشا للسفير الفرنسي بالمروحة)، التي أدت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وفرضت حصارا بحريا قاده (القبطان كولي) وقدموا إنذارا إلى الباشا، وطلب (كولي) من الباشا أن يعتذر للقنصل الفرنسي أما القناصل الأجانب، بحضور القبطان وأركان حربه، وأن يرسل بعثة برئاسة وزير البحرية (وكيل الخرج) إلى الأسطول الفرنسي ليعتذر باسم الباشا إلى القنصل، إلى غير ذلك من المطالب(أنظر الكتاب المقرر ص ٢٢٠).

وكانت التعليمات الفرنسية إلى القبطان؛ أنه كلما استجاب الباشا لمطلب تقدم إليه بمطالب جديدة، وأنه في حالة عدم استجابتة لأي مطلب يتم فرض الحصار رسميا على الجزائر. واستمر الحصار الفرنسي لمدة ثلاث سنوات، ولما اشتكى تجار مرسيليا الفرنسيون من الحصار الذي أضر بمصالحهم، وتزايدت الضغوط الداخلية الفرنسية، أنزل الفرنسيون قواتهم واحتلوا مدينة الجزائر في يوليو ١٨٣٠م، بعد استسلام الداي الذي غادر الجزائر إلى نابولي في ايطاليا.

ونصت المعاهده التي وقعها الداي على: حرية الداي في الذهاب إلى المكان يختاره هو وأسرته ، مع ثرواته الخاصة، وأن يبقى الإيمان بالدين الإسلامي حرا دون تدخل في حرية العبادة، وكذلك حرية الناس على اختلاف طبقاتهم في ممتلكاتهم الخاصة.

وقام الداي بعدة محاولات من نابولي لاسترجاع الجزائر، نتج عنها طرده من ايطاليا فاستضافه محمد علي في الإسكندرية، وأقلع عن محاولاته. وبذلك انتهى عهد النيابة في الجزائر.

وخلاصة الأمر شهدت ثلاثة قرون بقوة المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، حتى بدأ الزحف الأوروبي على أملاك الدولة العثمانية، ومن ضمنها بلدان المغرب العربي.

احتلال تونس ١٨٨١م :

كانت كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا تتنافس على النفوذ الاقتصادي في تونس، ولكن انفردت كل من فرنسا وايطاليا بالأطماع الاستعمارية فيها؛ فرنسا بحكم وجودها في الجزائر، وايطاليا بحكم قرب أراضيها من تونس، وأخذت كل منهما تبحث عن المساندة لتحقيق أطماعها.

وكان باي تونس من الأسرة الحسينية قد رحَب بالاحتلال الفرنسي لبلاده، ووقع في ٣٠ أغسطس ١٨٣٠م، في أعقاب الاحتلال الفرنسي للجزائر، معاهدة مع فرنسا تعهد بمقتضاها بمنع احتكار الدولة للمنتجات والقضاء على القرصنة، وبتطبيق نظام الامتيازات الذي فرضته الدول الأوروبية على الدولة العثمانية، وعرض الفرنسيون على باي تونس مشروع إقامة أميرين تونسيين حاكمين في قسطنطينة ووهران تابعين لفرنسا؛ وذلك لجعل القبائل الجزائرية تخفف من مقاومتها للحكم الفرنسي، ونفذ ذلك في وهران عام ١٨٣١م، ثم تخلت الحكومة الفرنسية عن المشروع.

ولما استكمل الفرنسيون احتلال قسطنطينة عام ١٨٣٧م؛ أصبحت تونس أشبه بمستعمرة تجارية لأوروبا، وبات سقوطها بيد فرنسا وشيكا. وحاولت فرنسا إضعاف ارتباط تونس بالدولة العثمانية، واستمرت تونس مرتبطة بالسلطة الدينية للسلطان العثماني. ورغم ذلك حاولت فرنسا أن تقيم علاقة متوازنة بين العثمانيين والفرنسيين. وحاول الباي أحمد(١٨٣٧- ١٨٥٥م) عدم استثارة السلطان العثماني، بحكم الرابطة الاسلامية، ولتجنب الوقوع تحت الاحتلال الأوروبي؛ فأرسل قواته للاشتراك في حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦م).

وأصدر الباي محمد عام ١٨٥٧، قانونا أساسيا(عهد الأمان) أعطى للأجانب حق التملك في تونس، وفتح الباب لدخول الاقتصاد الأوروبي للبلاد. كما شجع القانون المصلحين التونسيين، وعلى رأسهم خير الدين باشا وهو من أصل

شركسي، على المطالبة بإصلاحات أخرى؛ فأصدر الباي التالي، محمد الصادق، في عام ١٨٦١م، دستورا هو الأول من نوعه في أي بلد إسلامي آنذاك، ورغم أنه أوجد المؤسسات الدستورية؛ فإن الجماهير التونسية لم تهتم به، لأنه لم يحسن من وضعها، وعارضت الدول الأوروبية تطبيقه خصوصا فرنسا؛ لأنه يحجم من نفوذها في البلاد، وخصوصا من نظام الامتيازات، إلا أن بريطانيا أيدت الاصلاحات التونسية؛ فنالت حرية التجارة في تونس.

وقد واجهت الحكومة التونسية صعوبة تنفيذ مشروعاتها الاصلاحية؛ فلجأت إلى القروض الأجنبية وفرض الضرائب، ورفضت القبائل دفع الضرائب وثارت ضدها عام ١٨٦٤م، وعمت ثورتها الساحل متخذة مظهرا وطنيا ضد المصالح الأجنبية، فوجد فيها الباي الفرصة لتعطيل الدستور، وساءت الحالة الاقتصادية، مما اضطر الباي عام ١٨٦٩م، لقبول لجنة مالية دولية، أصبحت بموجبها المالية التونسية تحت وصاية فرنسا وبريطانيا. ولكن هزيمة فرنسا أمام بروسيا عام ١٨٧٠م، أضعف نفوذها وشجع بريطانيا على مصالحة تونس مع الدولة العثمانية . واستغل خير الدين هذه الظروف وحاول القيام ببعض الاصلاحات المالية والتعليمية وقضايا الدين وغيرها. لكن الدول الأوروبية لم ترض عن أعماله، وحرَضت الباي ضده؛ فاستقال عام ١٨٧٧م.

وحاولت فرنسا في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م، الحصول على اعتراف دولي ببعض الامتيازات في تونس، حصلت على موافقة بريطانيا وألمانيا، بينما عارضتها ايطاليا. ثم أخذت فرنسا تبحث عن ذريعة لاحتلال تونس، ولما عبرت قبيلة تونسية الحدود الجزائرية في مارس ١٨٨١م؛ دعت الباي لمشاركتها في تأديب القبائل، ولم تنتظر طويلا حتى عبرت القوات الفرنسية حدود تونس في أبريل، وفي ١ مايو ١٨٨١م نزلت القوات بميناء بنزرت، وتقدمت حتى وصلت قصر الباي محمد الصادق(قصر البارود). وحمل الجنرال الفرنسي(بربار) نص المعاهدة الخاصة بوضع تونس تحت الاحتلال الفرنسي؛ واضطر الباي لتوقيعها في ١٢ مايو عام ١٨٨١م، وأعلنت تونس محمية فرنسية.

وهكذا نجحت الأطماع الأوروبية في مرحلتها الأولى في البلاد العربية، وثبتت أقدامها في بعض البلاد، خاصة المناطق الحساسة في الخليج العربي والبحر الأحمر، والسواحل العربية للبحر الأبيض المتوسط . ورغم أن الاحتلال الأوروبي لم يحقق كامل أهدافه في السيطرة الكاملة في بعض المناطق؛ إلا أنه ركز نفوذه الاقتصادي تمهيدا للغزو العسكري، وركز نفوذه الثقافي في بعض المناطق مثل بلاد الشام خاصة لبنان. وكان كل هذا بسبب الضعف الي أصاب الدولة العثمانية، التي أصبحت برمتها موضوعا للنقاش بين الدول الأوروبية، وهو ما عرف في الدبلوماسية الأوروبية باسم (المسألة الشرقية) .

==========

المحاضرة الحادية عشر

العرب في القرن التاسع عشر الميلادي :

تيار الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تيار الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر(تجربة محمد علي) :

مر المجتمع العربي الاسلامي بتجربة الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتمثل ذلك بالتجربة المصرية، لأن مصر سبقت الدول العربية للأخذ بالنظم الغربية الحديثة،وذلك من خلال الحملة الفرنسية وآثارها على المصريين؛ ولأن بونابرت أشرك المصريين في الحكم إلى جانب الفرنسيين، وأدخل مبدأ الانتخاب بدلا من التعيين في الوظائف العامة، ولما شغر منصب قاضي القضاة طلب إلى شيوخ الأزهر اختيار أحدهم ليقوم بالوظيفة بدلا من القاضي العثماني.

وكان لذلك أثره في الفكر المصري، حتى تمكن المصريون من تنصيب محمد علي باشا عام ١٨٠٥م حاكما عليهم. وعمل محمد علي على استكمال بناء الدولة الحديثة في مصر، فقضى على المعوقات التي تعوق تحقيق هدفه، مثل : الزعامات الشعبية، وقوة المماليك، ونظام الالتزام، وغير ذلك؛ فأدخل النظم الحديثة، وحفظ مصر من الأخطار الخارجية، وتمثل ذلك عندما نجح الشعب المصري بهزيمة الانجليز في رشيد عام ١٨٠٧م، ووقع محمد علي معاهدة معهم تضمنت جلاء الانجليز عن مصر؛ مما أتاح له الفرصة لاقتباس النظم الغربية، مستعينا بالخبراء الأوروبيين، مقتبسا النظم الحربية والاقتصادية والإدارية، وأرسل البعوث العلمية وأدخل التعليم الحديث. وأسس حكومة مركزية قوية، ووضع نفسه على رأسها؛ وبذلك حلت إدارة منظمة للحكم محل الفوضى السابقة. ونهض محمد علي بموارد البلاد الاقتصادية، وإن كان عائدها في المقام الأول إلى الحكومة دون الشعب، لكنها حمت الشعب من تلاعب التجار والمضاربين الأوروبيين.

وأدى نجاح تجربة محمد علي في إقامة الدولة الحديثة في مصر، لاتخاذ مصر نفسها نواة لدولة موطدة الأركان، تجمع الأقطار العربية الأخرى. وجاء تكليف السلطان العثماني لمحمد علي للقضاء على الدولة السعودية الأولى، ليعطي الفرصة، لاستكمال بناء الدولة العربية التي تطلع لإقامتها. وكانت حملة ابنه طوسون التي لم تنجح، ثم حملة ابنه ابراهيم التي أحرزت نجاحا كبيرا، واستولت على الدرعية، ووصلت إلى سواحل الخليج العربي، ثم استولت قوات محمد علي على المناطق اليمنية، وتمكن نفوذه في جزيرة العرب، وقضى على الحركة العربية الأولى التي سعت لتطهير المجتمع العربي الاسلامي من الفساد، وإلى خلع الحكم العثماني.

واتجه محمد علي بعد جزيرة العرب إلى السودان الحيوي بالنسبة لمصر، ورأى ضرورة استقلال وادي النيل من منبعه إلى مصبه، وصارت مصر والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة. وإن كانت هناك دوافع اقتصادية أساسية وراء رغبة محمد علي في فتح السودان.(أنظر الكتاب المقرر ص ٢٣١). فقد أدرك أهمية السودان لمصر، ولم يلق الجيش المصري الذي تحرك لفتح السودان مقاومة تذكر في كثير من المناطق، إلا أن الأمراض والأوبئة التي أصابت الجنود كانت أشد خطرا من القتال.

وحقق ضم مصر للسودان الوحدة القومية للبلدين، وانتشرت مظاهر الحضارة ونظام الحكم المنظم في أرجاء السودان، وتعامل المصري مع السودان باعتباره جزء لا يتجزأ من مصر. وأدخل المصريون الزراعات المصرية إلى السودان كالقمح وأشجار الفاكهة.

شجع نجاح محمد علي في شبه جزيرة العرب والسودان ،على أن يتمرد على سيده السلطان، خاصة وأن محمد علي يسيطر على البلاد المقدسة، وكان شريف مكة يهابه أكثر من السلطان، مستغلا النظرة الايجابية للجيش المصري مقارنة بالجيش العثماني من قبل الرعايا العرب، فكانت التربة صالحة لبث الفكرة العربية، التي كانت تواجه معارضة بريطانية قوية.

وتلخص مشروع محمد علي في إقامة دولة عربية تضم: مصر والسودان وجزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، ويمسك بزمام الخلافة الإسلامية، ولإتمام مشروعه جهز عام ١٨٣١م، جيشا كبيرا بقيادة ابنه ابراهيم لفتح بلاد الشام وانتزاعها من السلطان العثماني، محتجا بالنزاع بينه وبين والي عكا، وسارت جيوشه إلى عكا في أكتوبر ١٨٣١م، وهنا تحرك الباب العالي للدفاع عن الدولة العثمانية؛ فأعلن عزل محمد علي عن مصر وابنه ابراهيم عن مكة، وأعد حملة عسكرية بقيادة حسين باشا لصد جيوش محمد علي، وصدر فرمان تعيين هذا القائد واليا على مصر بدلا من محمد علي.

تقدمت جيوش محمد علي بسرعة في بلاد الشام، ساعدها على ذلك أوضاع بلاد الشام آنذاك حيث انعدام الأمن، وتسلط الباشوات على السكان، وانقسام أهلها بأديانهم المختلفة إلى طوائف. فاستولت على بيت المقدس وطرابلس وبيروت وعكا، ودخلت دمشق دون مقاومة، وهزمت العثمانيين عند حمص، ووصل ابراهيم بقواته إلى حلب، وهزم

حسين باشا عند مضيق بيلان بين انطاكية واسكندرونة، وتقدمت في الأناضول، وانتصرت على القوات العثمانية في قونية ، في نوفمبر ١٨٣٢م؛ وبذلك أصبح الطريق أمامها مفتوحا إلى الآستانة، فتقرب السلطان من روسيا وطلب عونها العسكري، فأنزلت روسيا جيوشها في الأراضي العثمانية، مما دفع الدول الأوروبية للنهوض للعب دورها في الصراع المصري العثماني، فضغطت على محمد علي للقبول بصلح كوتاهية، وبموجبه حصل محمد علي على بلاد الشام ، وابنه ابراهيم على أظنة، بشرط عدم التوريث.

العقبات التي واجهت مشروع محمد علي (الوحدة العربية) :

أصبحت الدول العربية التي تتبع محمد علي بعد صلح كوتاهية تضم : الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والسودان. وعمل ابراهيم الذي تولى أمر الشام عام ١٨٣٢م، بنشاط على نشر أفكاره في بعث النهضة، وجمع العرب في اتحاد متميز عن الدولة العثمانية، لكن هذه التجربة واجهت عدة عقبات هي:

أولا: أن محمد علي وابنه لم يكونا عربيين ولم يتقنا العربية، وإن تكلمها ابراهيم بشيء من الطلاقة. واتفقا على تكوين دولة من البلاد العربية التي تم الاستيلاء عليها؛ لكنهما لم يتفقا في تصورهما للدولة المستقبلية، وفي نظرتهم إلى أهلية العرب، فمحمد علي لم ينظر إلى العرب نظرة احترام وتقدير، بينما ابراهيم عمل على خلق نهضة عربية، وعرف تاريخ العرب وخالطهم، وآمن بدورهم في بناء الدولة المنشودة. وكان ابراهيم يعد نفسه عربيا. ونظم الإدارة في ولاية الشام في معظم النواحي الرئيسية، كتوزيع الضرائب والقضاء والتعليم والمساواة؛ فانبثق فجرا جديدا في بلاد الشام خلال عهده.

ووقفت الدول الأوروبية في وجه الفكرة العربية، كما نفذ ابراهيم أوامر أبيه التعسفية ضد العرب في بلاد الشام، مثل : فرض الضرائب الجديدة، والتجنيد الاجباري، وتجريد الشعب من السلاح، فتذمر الشعب وقامت الثورات ضد ابراهيم في جميع أنحاء بلاد الشام. ورغم نجاح ابراهيم في إعادة الهدوء إلى بلاد الشام ،إلا أنه فقد محبة الشعب؛ وبالتالي ساهم كل ذلك في فشل مشروعه الوحدوي.

ثانيا: مناهضة الدول الأوروبية لفكرة الدولة العربية، خاصة بريطانيا التي رأت أن امتداد نفوذ محمد علي إلى جزيرة العرب أكسبه سيطرة قوية على أهم الطرق التجارية العالمية، كما خشيت أن يؤدي النزاع بين محمد علي والسلطان إلى تفوق النفوذ الروسي في القسطنطينية؛ لذلك عارضت مشروع الوحدة العربية، أو تقطيع أوصال الدولة العثمانية، وإحلال دولة عربية محل الدولة العثمانية في السيطرة على طريق الهند.

وعارضت النمسا كذلك الفكرة العربية؛ ولذا نجد أن الدول الأوروبية وقفت إلى جانب الدولة العثمانية عند تجدد النزاع بين محمد علي والسلطان العثماني عام ١٨٣٩م، بل إن بريطانيا وروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا، أرسلت إلى السلطان في يونيو ١٨٣٩م، يطلبون منه ألا يعقد صلحا مع محمد علي، دون موافقتها. وكانت هذه المرة الأولى التي يبرز فيها مشروع الوحدة العربية كمشكلة عالمية، سعت الدول الأوروبية إلى تحطيمها، حتى تم لها ذلك في ١٥ يوليو عام ١٨٤٠م.

ثالثا: فقدان التضامن القومي في العالم العربي آنذاك، بسبب ما أصابه من سوء الإدارة والانحطاط في القرون الماضية، والتي قسمت البلاد العربية إلى وحدات إقليمية ومذهبية، ونشوء العصبية القبلية والمذهبية، وبخاصة في بلاد الشام، فلم تكن الوطنية بمعناها القومي معروفة آنذاك، واختلفت دوافع الناس نحو الحرية. وربما نستطيع القول أن الفكرة العربية في ذلك الوقت كانت سابقة لأوانها؛ لأنها خلقت قبل أن يخلق الوعي القومي عند العرب، كما عجز القائمان بها عن إذكاء الروح القومية في النفوس العربية، ولذا فإنها اختفت على أثر الهزيمة التي مني بها هذان الرجلان، ولم تظهر ثانية كمسألة عالمية، إلا في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م؛ حين تنبه الشعور القومي عند العرب، ولقيت معاضدة بريطانيا، وبدأت الحركة العربية الجديدة في بلاد الشام، بعد أن مهدت لها الحركة الأدبية.

==========

المحاضرة الثانية عشر

العرب في القرن التاسع عشر الميلادي:

مصر في عهد خلفاء محمد علي (١٨٤٨- ١٨٨٢م)

أولا: عصر عباس الأول(١٨٤٨-١٨٥٤م):

استمر محمد علي في الحكم حتى عام ١٨٤٨م، عندما ساءت حالته الصحية، وتشكل مجلس فوق العادة لتولي مسؤوليات الحكم برئاسة ابنه ابراهيم؛ الذي اهتمت حكومته بإدارة شؤون البلاد الداخلية والخارجية، خاصة مع الدول الأوروبية والدولة العثمانية، واهتم ابراهيم بالمحافظة على الامتيازات المصرية التي حصلت عليها مصر بموجب تسوية المسألة المصرية عامي ١٨٤٠-١٨٤١م. كما اهتمت حكومته بتنظيم الجيش المصري. وسلك ابراهيم سياسة الحيطة والحذر مع الباب العالي؛ فزار الآستانة وحصل على فرمان الولاية عام ١٨٤٨م، لكن المرض لم يمهله كثيرا فمات في ١ نوفمبر ١٩٤٨م في حياة أبيه؛ فخلفه ابن أخيه طوسون وهو عباس الأول(١٨٤٨-١٨٥٤م).

لم يكن لعباس الأول طموح جده، فتخلى عن مشروعه النهضوي، وألغى تلك المشروعات التي أسسها، وطرد الفنيين الأوروبيين، وكان عهده عهد جمود وركود، وأغلق المكاتب الابتدائية والمدارس، حتى أنه شرد المعلمين، واستعاض عن المدارس الحربية بمدرسة واحدة سماها(المفرزة)، وأهملت في عهده حركة التأليف والترجمة، واهتم بثروته الخاصة، وأهمل شؤون الدولة، فساءت مالية الدولة، وكذلك أحوال الفلاحين، بسبب الظلم واستبداد المديرون بالأهالي في الأقاليم. وقد أتاح سوء الإدارة الفرصة للباب العالي للتدخل في مصر، فطلب من عباس عام ١٨٥٠م، إدخال التنظيمات العثمانية إلى مصر، الأمر الذي اعتبره عباس يتعارض مع الحقوق الوراثية النى نص عليها فرمان عام ١٨٤١م.

وتقرب عباس إلى بريطانيا لمواجهة ضغوط الباب العالي، فعقد مع القنصل الانجليزي في فبراير عام ١٨٥١م، اتفاقا ينص على تدخل بريطانيا لدى الباب العالي للمحافظة على حقوق والي مصر. وأن يعمل عباس على تشجيع التجارة البريطانية، وتأمين طريق المواصلات مع الهند، وعارض الباب العالي اتفاق عباس مع بريطانيا؛ لكن الوزير الانجليزي (بلمرستون)، أيد توجه عباس، وأبلغه موافقة الحكومة الانجليزية على رغباته.

ونجحت المساعي البريطانية في الآستانة، وتوصل الوالي والسلطان إلى حل لمسألة التنظيمات في عام ١٨٥٢م، بشكل لا يخل بفحوى فرمان الولاية الصادر عام ١٨٤١م. وقرئ رسميا في القاهرة في ٢٣ أغسطس ١٨٥٢م، فرمان السلطان الذي أقر حق الوالي في القصاص. وبدأت حكومة عباس بمد السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية. وظل عباس يسير على السياسة التي اختطها لنفسه حتى مات مقتولا في ١٣ يوليو ١٨٥٤م؛ فخلفه في ولاية مصر، عمه محمد سعيد بن محمد علي.

ثانيا: عصر محمد سعيد باشا(١٨٥٤-١٨٦٣م) :

كان محمد سعيد شديد الاعجاب بالحياة الغربية، ويتظاهر بالثقافة والآراء الحرة الحديثة، وسمح للتجار الأجانب بأن يتعاملوا مباشرة مع المزارعين، وتنازلت حكومته عن الضرائب المتبقية على الفلاحين؛ فشعر الفلاح بشيء من الطمأنينة، وأراد محمد سعيد الاعتماد على الأموال والمشروعات الأوروبية لترقية البلاد، فانفتح الباب للتدخل الأوروبي، ونشطت التجارة الداخلية، وفي أغسطس ١٨٥٨م؛ أصدر(اللائحة السعيدية) التي زادت في حقوق الفلاح على أرضه، فارتفع الانتاج الزراعي، وارتفعت صادرات مصر الخارجية.

وأكمل محمد سعيد الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦م، وآخر بين القاهرة والسويس عام ١٨٥٨م؛ فاستكمل بذلك الاتصال البري بين أوروبا والهند. واهتم بالملاحة النيلية، وأسس عام ١٨٥٧م شركة للملاحة البحرية عرفت باسم(الشركة المجيدية). وصارت الحكومة المركزية هي المشرفة على دقائق الأمور في الأقاليم والبلاد النائية. وحصل من الباب العالي على حق تعيين القضاة، ونظم الدواوين، وأنشأ النظارات الجديدة (المالية- الحربية- الخارجية- الداخلية).

ويؤخذ على محمد سعيد باشا أنه لم يهتم بالتعليم، فبدأ حكمه بإلغاء ديوان المدارس، وألغى كثيرا من المدارس القائمة، واكتفى بمدرسة حربية بالقلعة، وأنشأ مدرسة للمهندسخانة، وساءت الدراسة بمدرسة الطب، وقلل من إرسال البعوث العلمية.

ورغم إهماله التعليم فقد وجه محمد سعيد باشا عنايته للجيش بسبب خوفه من انقلاب الباب العالي والدول الأوروبية عليه؛ فكان يقضي معظم وقته بين الجند، وكون فرقا خاصة سماها (الفرق السعيدية)، ورقى كثيرا من الضباط المصريين إلى المراكز العالية، بعد أن كانت قصرا على الأتراك والجراكسة، وعمم الخدمة العسكرية، وجعلها إجبارية. كما وجه عنايته إلى الأسطول، لكن تدخل الباب العالي وانجلترا عاقه عن هذا الاهتمام بالجيش، فسرح الجند عام ١٨٦١م، مكتفيا بقوة رمزية من(٢٥٠٠) جندي.

وكان محمد سعيد باشا محبا للأجانب مفضلا لهم، مما شجع الأوروبيين على الهجرة إلى مصر بقصد الثراء السريع، وانتشر اليونانيون على الخصوص في القرى، يقدمون القروض والسلف للفلاحين بالربا الفاحش، مما زاد السلب والنهب. وازداد التدخل القنصلي في عهده؛ الذي أدى إلى ارتباك المالية المصرية،واضطراره إلى إصدار سندات على الخزانة أعطاها للموظفين بدلا من مرتباتهم(سندات الموظفين). وفي عهده عقد أول قرض خارجي بتمويل فرنسي، وكانت قيمته الاسمية ٢٨ مليون فرنك، والفعلية ٢١ مليون فرنك، ثم عقد قرض ثاني بتمويل انجليزي ألماني. وقدرت ديون محمد سعيد باشا قبل وفاته بسبعة ملايين وأربعمائة ألف جنيه إنجليزي.

واعتمد في سياسته الخارجية على التأييد الفرنسي، الذي دفع ثمنه لفرنسا على شكل امتيازات هي :

١- امتياز حفر قناة السويس. والذي أجحف بالسيادة المصرية على شطر من أراضيها، وأقام دولة داخل دولة، وسخر الفلاحين للعمل، واضطر محمد سعيد للاستدانة لشراء نصيبه من الأسهم، مما أربك المالية المصرية

٢- إرسال أورطة سودانية إلى المكسيك لمساعدة الفرنسيين.

٣- فتح أبواب مصر والسودان للاستغلال الأجنبي والنفوذ القنصلي، مما أضر بالمالية المصرية، وبنفوذ الحكومة المصرية في كثير من المناطق التابعة لها.

ولم ترض بريطانيا عن تغلغل النفوذ الفرنسي في مصر؛ فأخذت تبث الدسائس ضده في الآستانه، وسعت لتعطيل مشروع قناة السويس، حتى لا يهدد مصالحها في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وساهم الموقف البريطاني في تأزم العلاقة بين محمد سعيد باشا والباب العالي في السنوات الأخيرة من حكمه، حتى وفاته عام ١٨٦٣م.

ثالثا: عصر الخديوي اسماعيل(١٨٦٣ – ١٨٧٩م) :

ورث الخديوي اسماعيل الكثير من المشاكل، خاصة الأزمة المالية وتغلغل النفوذ الأجنبي في مصر . وأعلن عند استلامه الحكم العزم على إدخال الاصلاحات اللازمة في مرافق الدولة العامة، واتبع برنامجا إصلاحيا، يعتمد على استغلال رؤوس الأموال الأجنبية، لاستثمار موارد البلاد، ومنع الاستغلال الأجنبي للسكان، خاصة من المزارعين .

ولذا شهد عهد اسماعيل تأليف الشركات الزراعية والتجارية، برؤوس أموال معظمها أوروبية . لكن مشروعاته الاصلاحية، وبناء دولة على النمط الغربي، دفعته إلى الاقتراض من المصارف الأجنبية بفوائد أربكت المالية المصرية.

نظم إسماعيل باشا الإدارة بشكل كفل إشراف الحكومة المركزية على شؤون القطر، فقسم مصر إلى ثلاثة أقسام: الشمالية والوسطى والجنوبية. وجعل جميع الوظائف خاضعة لإشرافه الفعلي مما ركز السلطة في يده. وكان يعاونه (المجلس الخصوصي) الذي كانت مهمته وضع القوانين، والنظر في الإدارة تحت إشرافه، ثم استبدله عام ١٨٧٨م (بمجلس النظار) ليكون هيئة مسؤولة عن إدارة الحكومة على النمط الأوروبي، وقام نوبار باشا بتشكيل أول نظارة كان بينها أجنبيان، ولذا عرفت بالنظارة الأوروبية أو المختلطة.

وعمل إسماعيل باشا على تقوية سلطته في الريف عن طريق تدعيم نظام مشايخ القرى، ثم أوجد طبقة العمد، وفي عام ١٨٦٦م، أمر بتشكيل مجلس شورى مصر، الذي ينتخب أعضاءه الأهالي؛ فكان الخطوة الأولى لتجربة المجالس النيابية في مصر، وإن كان محدود الصلاحيات، فكانت قرارات عبارة عن رغبات ترفع للخديوي وله فيها القول الفصل. وحق الانتخاب مقصور على عمد البلاد ومشايخها، والأعيان وملاك العقارات في المدن . ولم يكن يجتمع إلا شهرين سنويا، بشكل سري، واجتماعه وحله منوط بالوالي.

واهتمت حكومة إسماعيل باشا بالزراعة، خاصة زراعة القطن، وبحفر الترع والقنوات، وجلبت عددا كبيرا من آلات الري الحديثة. وأنشئت عام ١٨٦٤(الشركة الزراعية الصناعية المصرية) بغرض بيع الآلات وبناء المصانع. لكنها لم تنجح وأغلقت عام ١٨٦٦م. وعانى الفلاحون في عهد إسماعيل من المظالم، أهمها :السخرة في العمل في مشروعات الحكومة المختلطة، وكثرة الضرائب. واهتم إسماعيل بصناعة السكر وتكريره، وجلب الآلات الحديثة من أوروبا. كما أنشأ مصانع للنسيج والطوب والدباغة والزجاج والورق . واهتمت حكومته بأعمال الطباعة، واعتنت بطرق المواصلات.

أما التعليم والحياة الفكرية، فقد اهتم إسماعيل بإنشاء المدارس، وإرسال البعوث إلى أوروبا، وأخذت الحكومة تنشئ المدارس التجهيزية والمتخصصة، مثل مدارس الحقوق والألسن والزراعة واللغات وغيرها. وأنشئت أول مدرسة لتعليم البنات، وهي مدرسة السيوفية. وفي عام ١٨٦٨م صدرت لائحة توحد نظم التعليم، وتقسمه إلى مراحل، كما أنشئت المؤسسات الثقافية كدار الكتب عام ١٨٧٠م، والمتحف المصري، وشجعت الجمعيات العلمية الخيرية، وظهرت الصحف العلمية والأدبية، مما أدى إلى نهضة فكرية.

وسعى اسماعيل لتوطيد سلطته في البلاد عن طريق إرضاء السلطان العثماني وحاشيته، عن طريق إغداق الأموال عليهم، مما مكنه على الحصول على عدة فرمانات حققت لمصر مزايا وصلت حد الاستقلال الذاتي، وبلغ عدد هذه الفرمانات خمسة، وقد تضمن الأول(فرمان الوراثة الصلبية) عام ١٨٦٧م؛ حصر الوراثة في أكبر أبناء الوالي، فإن لم يكن له ولد انتقلت إلى إخوته وهكذا. وأجاز فرمان عام ١٨٧٢م، للخديوي حق عقد القروض باسم الحكومة المصرية. أما فرمان عام ١٨٧٣م(الفرمان الجامع)، فقد أقر عدة حقوق جديدة للخديوي؛ كحق زيادة عدد الجيش، وعقد الاتفاقات مع مأموري الدول، وغيرها.

واتجه الخديوي منذ عام ١٨٦٧م إلى الحد من مساوئ الامتيازات الأجنبية، عن طريق إنشاء المحاكم المختلطة. أما فيما يتعلق بسياسته التوسعية في السودان وأفريقية الوسطى والشرقية، وكان من أهدافها محاربة الرق وتجارته، وإنشاء الامبراطورية المصرية، وقام بعدة خطوات في هذا المجال؛ منها : دعم حقوق مصر في السودان الشرقي، وعلى طول ساحل البحر الأحمر، حتى مضيق باب المندب، وعلى بلاد الصومال. وفتح دارفور في السودان الغربي، وحصول مصر على ميناء زيلع، وفتح هرر، وجهات النيل الأعلى وبحر الغزال، وتأسيس مديرية خط الاستواء، لمحاربة الرق والنخاسة.

ونتج عن حركات التوسع المصري عدة نتائج أهمها:

١- الحرب الحبشية المصرية(١٨٧٥-١٨٧٦م) التي أرهقت المالية المصرية، دون نتائج حاسمة.

٢- اشتداد سخط السودانيين على الحكم المصري بسب الاجراءات المتطرفة في محاربة تجارة الرقيق، التي كانت مرتبطة بالتكوين الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات الإفريقية.

وخلاصة الأمر، فقد أدت مشروعات الخديوي إسماعيل الجديدة إلى اشتداد الأزمة المالية في عهده، وقد اتخذت الدول الأجنبية من هذه الأزمة، سبيلا للتدخل في مصر؛ انتقل من التدخل المالي إلى السياسي في أواخر عهد إسماعيل، حتى وصل ذروته حينما أقنعت الدول الأجنبية الباب العالي بعزل إسماعيل في يونيو ١٨٧٩م، وغادر مصر منفيا إلى ايطاليا؛ فتولى الحكم بعده ابنه محمد توفيق.

رابعا: عصر توفيق والثورة العرابية(١٨٧٩- ١٨٨٢م):

تلقى محمد توفيق تعليمه في مصر، وتقلد عدة مناصب حكومية، حتى أصبح رئيسا لمجلس النظار، واكتسب خبرة بأحوال البلاد التي كانت حين توليه الحكم في حالة اضطراب شديد، ماليا وسياسيا؛ فازداد التدخل الأجنبي، وسيطر المرابون على الاقتصاد، وأصبح المصريون وكأنهم لا يملكون شيئا. واشتد بؤس الفلاح المصري إلى درجة لا مثيل لها، ولجأ الفلاحون إلى الشكوى وكتابة العرائض، وطالبوا بتخفيض الضرائب، وتربصوا بأبواب الوزارات.

وكانت علاقة مصر بالدولة العثمانية مضطربة، وأرادت الدولة العثمانية من تولية محمد توفيق، إلغاء الحقوق التي حصلت عليها مصر عام ١٨٧٣م، بمقتضى الفرمان الجامع، لكن بريطانيا وفرنسا تدخلتا خوفا من زيادة النفوذ العثماني في مصر، فحصلت بعض التعديلات على ذلك الفرمان.

وألف الخديوي توفيق وزارته برئاسة رياض باشا، وحكمت البلاد حكما استبداديا مطلقا، يوافق نزعة الخديوي، وأهملت مجلس شورى النواب، وساءت علاقة الخديوي بالشعب، وأعيدت الرقابة المالية الثنائية، واتخذت شكلا سياسيا. ولما كانت المسألة المالية أكثر مشاكل مصر تعقيدا؛ كان للمراقبين اللذين عينتهما فرنسا وبريطانيا الحق في التفتيش على جميع مصالح الحكومة ومراجعة حساباتها، وغير ذلك من الحقوق؛ فأرادت مصر إشراك الدول في حلها؛ واجتهدت بحل المشكلة المالية وتصفية الديون، وتعديل نظام الضرائب. وفي يناير ١٨٨٠م، عرض المراقبان على مجلس النظار اقتراحا ببيع حصة مصر في ارباح قناة السويس؛ بحجة أنها مرهونة، والحكومة عاجزة عن سداد الرهن؛ فوافق مجلس النظار؛ وبهذا فقدت مصر ما تبقى لها من فائدة مالية في القناة. وفي أبريل عام ١٨٨٠م، صدر قرار بتكوين لجنة دولية (لجنة التصفية)، لتحديد علاقة الحكومة المصرية بالدائنين، ووضعت اللجنة قرارات عرضتها على الخديوي؛ فأصدر بها قانونا عرف بقانون التصفية في يوليو ١٨٨٠م؛ يتلخص في تقسيم إيرادات الحكومة إلى قسمين: قسم للصرف على الإدارة الحكومية، وقسم لتسديد أقساط الديون وفوائدها.

ولم يستطع الخديوي حل هذه المشاكل، وازداد تدخل الأجانب في شؤون البلاد، وقابل ذلك زيادة شعور المصريين بحقوقهم واستعدادهم للمطالبة بها، إلى جانب حرمان البلاد من الحكم الدستوري، وكان الرأي العام المصري بدأ يتكون نتيجة لانتشار التعليم والصحف، مع وجود زعماء مفكرين اتصلوا بالشعب، الذي اعتنق أفراده أفكار جمال الدين الأفغاني.

واقتضت الظروف أن يكون الخروج على النظام الاستبدادي على يد الجيش الذي أخذ يدافع عن مصالحه الخاصة، ومصالح الأمة. وكان الضباط المصريون في الجيش قد وقعوا تحت الاضطهاد، الذي زاد بتعيين عثمان رفقي باشا الشركسي ناظرا للحربية في وزارة رياض باشا، وقد تزعم الحركة الوطنية في الجيش: أحمد عرابي، وعبد العال

حلمي، وعلي فهمي، الذين قدموا عريضة إلى الخديوي في يناير ١٨٨١م، التمسوا فيها عزل وزير الحربية، وإنصاف الضباط الوطنيين.

لم ترض وزارة رياض باشا عن حركة الضباط المصريين، وأخذت تكيد لهم؛ مما دعا إلى استقالة البارودي الذي جاء إلى وزارة الحربية نتيجة لإصرار الضباط على عزل عثمان رفقي، وأراد الضباط بعد استقالة البارودي إسقاط وزارة رياض باشا، فاتصل عرابي بنواب البلاد السابقين وأعيانها، وحصل منهم على توكيل بالمطالبة بالدستور.

وفي ٩ سبتمبر ١٨٨١م، قاد أحمد عرابي مظاهرة إلى ميدان عابدين، حيث قدم للخديوي مطالب الجيش والأمة؛ والتي تلخصت في إسقاط وزارة رياض باشا، وعودة الحياة الدستورية، وتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش إلى الحد الأدنى الذي نصت عليه الفرمانات السلطانية؛ فأجاب الخديوي جميع المطالب، وأمر شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة، لكن التدخل الأجنبي أدى إلى فشل الحركة الوطنية في النهاية، ودخول مصر فترة جديدة هي فترة الاحتلال البريطاني.

==========

المحاضرة الثالثة عشر

السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية

السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية:

أصيب العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدائين:

١- الأطماع الأجنبية

٢- الحكم الاستبدادي العثماني

حل الحكم الأجنبي محل الحكم العثماني في بعض أجزاء الوطن العربي، فقد استولت بريطانيا على عدن عام ١٨٣٩م، وجنوب الجزيرة، ومنطقة الخليج العربي، واحتلت مصر عام ١٨٨٢م، والسودان عام ١٨٨٥م، واستولت فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠م، وتونس عام ١٨٨١م، كما احتلت اسبانيا جزءا من المغرب، واحتلت ايطاليا ليبيا عام ١٩١١م؛ وبذلك تقطعت أوصال العالم العربي. وظهرت اليقظة العربية بوضوح، وقامت الحركات الوطنية في البلاد العربية، ضد الاحتلال الأجنبي أو الاستبداد العثماني، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى(١٩١٤-١٩١٨م) دخل كفاح العرب ضد العثمانيين مرحلته الحاسمة.

وظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي طائفة من المفكرين والكتاب العرب الذين أثاروا الأفكار بمقالاتهم وكتاباتهم؛ مثل الشيخ محمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، في مصر، وعبد الرحمن الكواكبي(١٨٤٩-١٩٠٢م) في بلاد الشام؛ الذي ألف كتابين هما : (طبائع الاستبداد)؛ أوضح فيه عوامل الفساد التي ألصقت بالإسلام، وفرقت المسلمين. وكتاب (أم القرى) الذ أشار فيه إلى وجوب استعادة العرب مكانتهم الطبيعية في تسيير شؤونهم، وشخص أمراض المسلمين السياسية ووصف علاجها.

وظهرت بنفس الفترة الجمعيات الأدبية والعلمية، في الشام والعراق؛ وساهمت في تنوير الأذهان، وإحياء اللغة العربية والتراث العربي. وكان من أهدافها: تنمية القومية العربية السياسية، والتحرر للوصول إلى الحكم الذاتي؛ وخير أمثلة لذلك: (الجمعية القحطانية) و (جمعية العهد) و (العربية الفتاة). هذا إلى جانب زيادة التعليم وتقدم الطباعة ونشر الكتب والصحف الوطنية، مما سهل تداول الأفكار.

كما ظهر زعماء عرب، استنهضوا الهمم العربية لخدمة القضايا الوطنية والقومية، بمختلف الوسائل، مثل : تشكيل الجمعيات السرية، وقيادة جماعات فدائية، ومحاربة الأعداء. لكن الحركة الوطنية اتسمت بالطابع المحلي أكثر من القومي، وفي هذه الظروف برزت فكرة الجامعة الإسلامية.

فكرة الجامعة الاسلامية :

ظهرت فكرة الوحدة الإسلامية الكبرى بهدف توحيد جهود المسلمين في مقاومة الاستعمار الغربي، الذي بدأ يتغلغل في البلاد العربية، باعتبار وحدة المسلمين ضرورة لإصلاح أحوالهم، ومواجهة الاستعمار. وكان السيد جمال الدين الأفغاني(١٨٣٩-١٨٩٧م) زعيم هذه الفكرة وداعيها الأول، وقامت دعوته على أساسين جوهريين هما :

١- إصلاح أحوال المسلمين ليأخذوا بأسباب المدنية الحديثة.

٢- العمل على تحرير الشرق من سيطرة الغرب، والسُمو بشعوبه إلى مستوى الأمم الحرة.

واستمر جمال الدين الأفغاني في دعوة المسلمين إلى الاتحاد، واكتشاف أسباب تقدم الغرب، والأخذ بها للدفاع عن أنفسهم من المستعمرين، وهذا لا يأتي إلا بالنهوض بالشعوب الإسلامية، وتكوين وحدة إسلامية شرقية، تكفل للمسلمين حريتهم واستقلالهم، خاصة مع عجز الدولة العثمانية عن حماية المسلمين.

بدأ الأفغاني دعوته في أفغانستان، حيث كان في خدمة الأمير محمد خان، ووقف على أطماع الاستعمار الانجليزي ودسائسه. ولما آل أمر أفغانستان إلى الأمير شير خان، بمساندة الانجليز ضد أخيه محمد خان، رحل الأفغاني عام ١٨٦٩م إلى الهند، ثم غادرها إلى مصر، فالآستانة، ثم استقر في مصر بين عامي(١٨٧١- ١٨٧٩م). وكانت دعوته قد نضجت وأثرت في نخبة من طلاب الأزهر، ومن أشهرهم: الشيخ محمد عبده، عبد الله النديم، محمود سامي البارودي، سعد زغلول. وشجع طلابه على الكتابة في الصحف والمجلات لتوجيه الرأي العام المصري والعربي والإسلامي إلى معرفة حال البلاد الاسلامية.

ولما طرد من مصر عام ١٨٧٩م، ذهب إلى باريس، حيث التقى بالشيخ محمد عبده، وهناك أصدرا معا عام ١٨٨٤م، مجلة (العروة الوثقى)؛ وكان هدفها ايقاظ الأمة الإسلامية، والدفاع عن حقوق المسلمين، ودعوة المسلمين للتمسك بأصول الدين الحنيف ونبذ الفرقة، والتوحد في مواجهة الاستعمار الأوروبي. ومنعت بريطانيا دخولها إلى البلاد الخاضعة لنفوذها، وأصدرت مع فرنسا قرارا بحظرها، وبالتالي توقف صدورها في أكتوبر ١٨٨٤م. وغادر محمد عبده باريس إلى بيروت، حيث درس لطلبته كتاب(التوحيد الذ هو حق الله على العبيد). وغادر الأفغاني باريس إلى إيران تلبية لدعوة الشاه محمد ناصر الدين، وفي إيران التف حوله العلماء، ونشر تعاليمه التي تدعو إلى الوحدة والحرية والثورة على النفوذ الأجنبي. ثم اختلف مع الشاه، فخرج من ايران إلى البصرة، ومنها إلى لندن. ودعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى استانبول، لاتخاذها مركزا لدعوته. وجاء إلى استانبول، واتفقت آراؤه مع آراء السلطان، حول أهمية الوحدة الإسلامية، ثم اختلفا حول من يكون خليفة المسلمين، واستغل خصومه من المقربين من السلطان وضعهم، فوجهوا له تهما تمس شخصه ومعتقداته. ولما فترت علاقته بالسلطان عبد الحميد استأذنه بالرحيل؛ فرفض طلبه، وأصيب خلال إقامته في إستانبول بمرض السرطان، فوافاه أجله يوم ١٨ مارس ١٨٩٧م، لكن دعوته ظلت باقية.

السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية :

سار السلطان عبد الحميد الثاني(١٨٤٢- ١٩١٨) على سياسة إسلامية، اعتمدت على رفع شأن الخلافة الإسلامية، وإبراز فكرة الجامعة الإسلامية؛ لمواجهة أطماع الدول الأوروبية في بلاده. وسعى لتقوية مركزه في الداخل والخارج، ليجذب إليه أنظار ملايين المسلمين. وأدرك عبد الحميد أهمية العرب وبلادهم، التي تضم الأماكن المقدسة؛ فقرب إليه

الأشراف، واستمال الزعماء الدينيين، وقرب إليه العناصر غير التركية، وقد أصبح عدد من العرب من المقربين إليه جدا؛ وعلى رأسهم نقيب أشراف حلب الشيخ أبو الهدى الصيادي، الذي أصبح مستشاره، وعزت باشا العابد، سكرتيره الثاني، وغيرهم. واهتم عبد الحميد بنشر الدعاية له في بعض الصحف، لتوجيه الرأي العام نحو سياسته الإسلامية، والتفاف المسلمين حول الدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية. وأدت سياسته إلى إضفاء المهابة على سلطانه وعلى اسم الخلافة لدى المسلمين بشكل عام.

ونشر شعاره المعروف(يا مسلمي العالم اتحدوا)، وساعدت الأحداث التي عايشها العالم الإسلامي آنذاك على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية، ضد الأخطار الاستعمارية، ودعوة المسلمين إلى التجمع حول الدولة العثمانية. وساهمت مجلة العروة الوثقى عام ١٨٨٤م، من خلال مقالاتها، بالتأكيد على أهمية رابطة الدين على أي رابطة أخرى، باعتبارها تجمع جميع الأجناس والأقوام العثمانية، تحت حكم السلطان العثماني، ما دام يقيم شريعة الإسلام. واعتبر الأفغاني الدين هو الجنسية التي يعتد بها. وكذلك فعل وكذلك فعل الكواكبي في كتابه (أم القرى)؛ عندما تخيل اجتماع المسلمين من مختلف البلاد الإسلامية، في مؤتمر في مكة، لبحث حالة المسلمين وطرق إصلاحها. وظهرت النزعة الاسلامية واضحة لدى كتاب العصر وقادته، الذين رأوا الخليفة،هو الجامع لشمل المسلمين، ودعوا إلى اتحاد المسلمين تحت ظل راية الخلافة، وحذروا من التفرقة التي تصيب المسلمين بالشر. واتضحت هذه الفكرة لدى شعراء مصر.(أنظر الكتاب المقرر ص ٢٦٣-٢٦٤).

وكانت العاطفة الدينية هي المسيطرة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتعلق الناس بفكرة الجامعة الإسلامية؛ مما جعل الغرب يهاجم الإسلام والمسلمين، وأصبحت الشعوب الإسلامية على اختلاف طبقاتها تسارع إلى مساعدة الدولة العثمانية في مواجهاتها مع الدول الأوروبية، وتفرح بانتصارها باعتباره انتصارا لجيوش المسلمين.

وارتبطت حركة الجامعة الإسلامية بردود الفعل على الحركة الاستعمارية الأوروبية أواخر القرن التاسع عشر، واستغل السلطان هذا الوضع لتحقيق أهداف عدة، منها: توطيد حكمه ضد معارضيه، وتعزيز موقفه الخارجي، لكسب ولاء المسلمي له، وبالتالي تهديد نفوذ الدول الأجنبية في مستعمراتها، التي من بين سكانها عشرات الملايين من المسلمين.

وأدرك الأوروبيون مخاطر هذه السياسة على مصالحهم، فقام رجال منهم، لهم مكانتهم في تاريخ الاستعمار، إلى مهاجمة الجامعة الإسلامية، باعتبارها بؤرة للتعصب الديني، وأن هدفها مواجهة الدول المسيحية. وراقبوا حركة الجامعة الإسلامية بعناية وحذر.

وقف أقطاب العرب والعثمانيين يدافعون عن الجامعة الإسلامية وينفون عنها صفة التعصب الديني، ودافع محمد عبده عن السلطان عبد الحميد، ووصفه بأنه أفخم سلاطين أكبر دول الإسلام. واعتبر بعض مفكري العرب الجامعة الإسلامية رد فعل لدى الشرق ضد أعمال الغرب. وأراد السلطان عبد الحميد أن يبرهن على تعلقه بهذه الفكرة، وإخلاصه لها، باستمالة بعض الشخصيات الدينية، ووجهاء العالم الإسلامي، وأغدق عليهم الأموال والأوسمة . وأنشأ مدرسة خاصة لتخريج الدعاة، الذين نشهرهم في مختلف البلاد للترويج لفكرة الجامعة الإسلامية.

ولتعزيز فكرة الجامعة الإسلامية،جاءت فكرة السلطان عبد الحميد بمشروع سكة حديد الحجاز، التي تربط دمشق بالمدينة المنورة، وربطها بسكة حديد بغداد. وشرع العمل بسكة حديد الحجاز عام ١٩٠٠م، واستعان السلطان بالألمان لإنشائه، لتسهيل رحلة الحجاج إلى البلاد المقدسة. وجمع من أجل سكة حديد الحجاز مبالغ كثيرة كتبرعات من البلاد العثمانية والإسلامية، وفرضت رسوم متنوعة لإتمام الخط. وهدف السلطان من هذا المشروع لتعزيز نفوذه ومكانته في العالم الإسلامي، وبين العرب.

وتنوعت أهداف السلطان عبد الحميد من سكة حديد الحجاز، فمنها الديني والسياسي والعسكري، فالخط يحقق عدة أمور منها:

- تسهيل رحلة الحج وتقصير مدته، ويجعله في متناول الجميع، ويزيد الاختلاط والتعارف بين المسلمين

- يؤمن نقل الجند بسرعة لقمع الثورات والدفاع عن حدود البلاد

- يساعد على التبادل التجاري، وعلى نقل الأفكار وانتشارها، وعلى تنمية الحياة الزراعية على طول الخط

- توطيد سلطة الخليفة، ومواجهة دسائس بريطانيا في البحر الأحمر والجزيرة العربية.

وخلاصة الأمر: ارتاح السلطان عبد الحميد، لأن كثيرا من العرب كانوا يميلون إلى تأييد الخلافة باعتباره تأييدا للإسلام؛ ولأن المستنيرين منهم أدركوا مخططات الدول الأوروبية لتقسيم الدولة العثمانية ومن ضمنها بلاد عربية، وأدركوا ضرورة تقوية الإسلام للوقوف في وجه الغرب. ولم يكن في نيتهم إضعاف الدولة العثمانية التي كانت لا تزال في أعينهم، دولة الإسلام الكبرى التي تظل المسلمين. ولذلك كانت اليقظة العربية في ذلك الوقت، يقظة ضد مساوئ وطغيان الحكم العثماني، والرغبة في إصلاحه، دون التفكير في إقامة دولة عربية مستقلة.

==========

المحاضرة الرابعة عشر

مراجعة عامة

لتوضيح أهم المحاور والترابط الموضوعي والتاريخي للموضوعات التي اشتملت عليها المحاضرات

- الاستيلاء العثماني على البلاد العربية في القرن السادس عشر

وجدت ثلاث قوى كبرى في منطقة الشرق الاسلامي مطلع القرن السادس عشر هي:

١- الدولة العثمانية ٢- الدولة المملوكية ٣- الدولة الصفوية

وقد نستطيع فهم التحولات في البلاد العربية خلال القرن السادس عشر الميلادي من خلال دراسة عدة معارك :

١- ديو البحرية عام ١٥٠٩م، بين البرتغاليين والمماليك، انتصرت فيها البرتغال، وكشفت ضعف الدولة المملوكية وعجزها عن الدفاع عن الشرق العربي.

٢- جالديران عام ١٥١٤م، بين الدولتين العثمانية والصفوية، انتصرت فيها الدولة العثمانية، وأخضعت أجزاء من العراق لسيادتها.

٣- مرج دابق ١٥١٦م، بالقرب من حلب، بين الدولتين العثمانية والمملوكية، انتصر فيها العثمانيون وأخضعوا بلاد الشام لهم

٤- الريدانية عام ١٥١٧م،في مصر، بين الدولتين العثمانية والمملوكية، انتصر فيها العثمانيون، وقضوا على الدولة المملوكية نهائيا، وأصبحت مصر وآسيا العربية(عدا أجزاء من العراق) تابعة للدولة العثمانية.

المحاضرات من ٢ إلى ٦

- الحكم العثماني للبلاد العربية

أولاً: الحكم العثماني في المشرق العربي :

- سمات الحكم العثماني للمشرق العربي

ثانيا : الحكم العثماني في المغرب العربي

ثالثاً:العثمانيون ومسألة الخلافة

- حركات الإصلاح السلفي في البلاد العربية خلال الحكم العثماني:

الدعوة السلفية .. الوهابية

الحركات الأخرى: السنوسية – المهدية

المحاضرات من ٧ إلى ١٠

- ازدياد نفوذ الحكام المحليين حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (ظاهرة)

بلاد الشام – العراق – الخليج العربي- مصر – المغرب العربي

حلقات الزحف الاستعماري على البلاد العربية خلال الحكم العثماني

١ - التنافس الانجليزي- الفرنسي في المشرق العربي الخليج العربي والبحر الأحمر

٢ - الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام(يوليو ١٧٩٨-سبتمبر ١٨٠١م)

٣ - الزحف الاستعماري على بلدان المغرب العربي(الجزائر ثم تونس)

المحاضرات من ١١ إلى ١٣ :

العرب في القرن التاسع عشر الميلادي :

١- تيار الوحدة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر(تجربة محمد علي في مصر والسودان وآسيا العربية)

٢- مصر في عهد خلفاء محمد علي (١٨٤٨- ١٨٨٢م)

٣- السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية :

والتي جاءت لمواجهة خطر الهجمة الاستعمارية(الأطماع الأجنبية) في أملاك الدولة العثمانية، ومن ضمنها البلاد العربية.

وأن اليقظة العربية التي ظهرت أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين؛ سعت إلى مواجهة خطرين هما:

١- الأطماع الأجنبية

٢- الحكم الاستبدادي العثماني

==========